وزارة الثقافة

مفلح الغساني

تأليف: نجيب نصار

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

مفلح الغسَّاني

تأليف: نجيب نصَّار

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٣٠
عن مطبعة الكرمل في حيفا

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: نجيب نصار
اسم الكتاب: مفلح الغساني
الطبعة الأولى: ١٩٣٠ عن مطبعة الكرمل في حيفا

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
صورة الغلاف: صورة للأديب الصحفي نجيب نصار

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

مفلح الغسَّاني

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

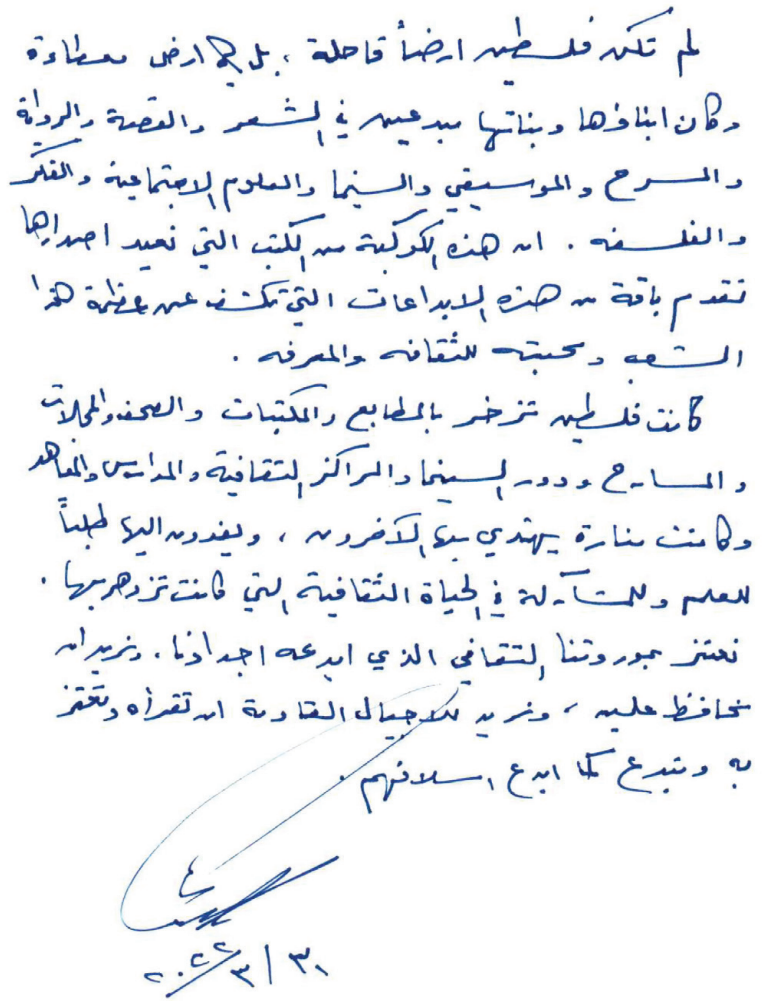
لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة ، بل كانت ارض عطاء
وكان ابناؤها وبناتها سبّاقين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة . انه لهذا الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا
الشعب وحبه للثقافة والمعرفة .

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الكثيرون ، ويفدون اليها طلباً
للعلم والمعرفة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها .
نعتز بجذورنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا . ونريد ان
نحافظ عليه ، ونريد لاجيالنا القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم .

٢٠٠٤/٣/٣٠

مقدِّمة الكتاب

منذ الانقلاب وإعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ بدأ مفلح الغساني يشعر بالخطر على الدولة العثمانية لأن داخليتهما اضطربت وظهرت مطامع الدول فيها، فانصرف همه مع بعض رفاقه المخلصين إلى التوفيق بين عنصري العرب والترك ليؤلفوا جبهة قوية تصون الشرق من الاستعمار، ولكن عوامل التفرقة بين العناصر كانت قوية، وخصوصا بين الترك والعرب، وتبيّن أن يهود سالونيك المعروفين بالدونما الذين تبنّت محافلهم الماسونية رجال تركيا الفتاة وعاونوهم على إحداث الانقلاب كانوا يغذون الخلاف بين العرب والترك لينتزعوا ثقة الترك من العرب فيسهّل الترك لليهودية العالمية الاستيلاء على فلسطين وإقامة حكومة يهودية فيها مستقلة استقلالا داخليا في بادئ الأمر، ثم تنبسط في شرق الأردن والعراق وسوريا. وكان اليهود يصوّرون للأتراك أن قيام حكومة يهودية في فلسطين يفصل بين مصر والجزيرة من جهة وبين سوريا ومصر من أخرى ويمنع العرب من الاتصال بالبحر فيبقى العرب ضعافا وغير قادرين على الانتفاض ومنازعة الأتراك الخلافة.

الوقوف على هذه الأمور جعل مفلحا شديد الرغبة في إزالة كل سوء تفاهم يقع بين العرب والترك ليدفع هذا البلاء عن قومه العرب وليتعاون الترك والعرب على تقوية دولتهم حتى لا يطمع الاستعمار فيها.

مفلح يشتغل بمقاومة التطرّف والعلو سواء أكاد عند العرب أو عند الأتراك، ويحارب الذين يضحون مصالح الدولة أو العنصر على مذابح مصالحهم الخاصة في محيطه، فكثر خصومه من العرب والترك واليهود على السواء على رغم أنه لم يكن يضمر لأحد من الناس سوءًا.

وما أعلنت الحرب العمومية في سنة ١٩١٤ والتهبت الرؤوس بحماها حتى أخذ هؤلاء الخصوم يشون بمفلح ويدسون عليه وهو لا يدري؛ لأن قلقه على بلاده ازداد وخصوصا لما رأى من رجال الجيش ميلا إلى الدخول في الحرب إلى جانب ألمانيا التي لم يكن لها قوة في البحر المتوسط فانصرف إلى التفكير في العواقب ولم ينفك عن إظهار ميوله إلى بقاء الحكومة العثمانية على الحياد المسلح أو الدخول في الحرب إلى جانب إنجلترا إذا لم يكن يدمن الدخول فيها.

دخلت حكومة الاتحاديين العثمانية في الحرب إلى جانب ألمانيا وكانت تحت تأثيرها إلى حد بعيد وبدأت بمعاملة العرب معاملات شديدة، وكان لألمانيا قنصلاً اسمه الدكتور لويتفت في حيفا وهذا كان يحمل حقدا على العرب لأن المسلمين منهم كانوا يميلون إلى إنجلترا والكاثوليك إلى فرنسا والأرثوذكس إلى روسيا فشرع يحرّض عليهم. ولأول مرة رأى العرب الحكومة العثمانية تستعمل الشدة مع رعاياها متبعة في ذلك طرق حكومات أوروبا الاستعمارية فصارت تغرب وتنفي وتسجن على

الشـك. ثـم ألفـت المحاكـم العسـكرية وصـارت تعلّـق عـلى أعـواد المشـانق إلى آخـر مـا هنالـك مـما صـار مألوفـاً عندنـا اليـوم.

أمـا مفلـح الـذي كانـت تقـع هـذه الحـوادث كالصواعـق عـلى رأسـه فقـد نـال قسـطه مـن ويـلات الحـرب وإليـك خلاصـة مـا أصابـه.

الفصلُ الأوَّل

الإنذار

حوالي الساعة التاسعة من مساء يوم في أوائل شباط سنة ١٩١٥، سمع حليم قرعا خفيفا على باب بيته على ظهر الكرمل فهرع إلى الباب وهو يضرب أخماسا في أسداس - خطر في باله خاطر كالبرق أن الطارق على الباب قد يكون بوليسا أتى لوقفه في تلك الليلة ويرسله في الصبح إما إلى المنفى أو إلى الديوان العرفي ولكنه قال في نفسه لو كان الطارق بوليسا لما طرق بهذا اللطف فالذين ينفّذون الأوامر القهرية قلما يكون لهم سلطان على أنفسهم يمنع تأثرها بالخشونة.

جاء حليم إلى الباب فشقه وأطل برأسه وسأل من الطارق؟

- افتح يا أخي!

عرف حليم الصوت فقال: وما الذي أتى بك في مثل هذه الساعة من الليل؟ ألا تخشى الدوريات والظنون والتهم؟ ادخل ادخل! فعيون الجواسيس لا تنام وقد اتخذوا لهم من الحيطان آذانا.

دخل الخوري وصافح حليما وقال: قبل أن أجلس أقول إني مكلف من مقام رسمي أن أخبرك لتنصح أخاك مفلحا بمغادرة حيفا لأن شكايات ممثل الخليفة عليه قوية وفخري باشا في الشام يكثر من السؤالات

عنـه وعـن ميولـه السياسـية وأحوالـه وتاريخـه، مـما يدعـو إلى الخـوف عليـه في ظـروف الحـرب هـذه إذ أصيـب الجميـع بحماهـا الشـديدة وصـار الموظفـون الأشراف يخافـون عـلى أنفسـهم ومـا عـادوا يجـرؤون أن يقولـوا الحقيقـة أو يدفـوا بقـوة التهـم عـن الأبريـاء والمخلصـين مخافـة أن يتهمـوا هـم.

- إلى أيـن يذهـب؟ أو ليـس الأفضـل أن يبقـى هنـا لأن النـاس ورجـال الحكومـة يعرفونـه ويدافعـون عنـه فضـلا عـن أن الخـروج مـن بيتـه يجعـل الشـكوك تحـوم حولـه.

- لـو كان رجـال الحكومـة يسـتطيعون أن يدافعـوا عنـه لمـا كلفنـي أكـبر مقـام فيهـم هنـا أن أحمـل إليـك هـذه النصيحـة. أمـا النـاس فالخـوف والرعـب مسـتولٍ عليهـم جميعـا وكل واحـد منهـم يقـول: سـلم لي رأسي وافعـل مـا شـئت.

- غدا صباحا سـأقابله وأخبره وهو يفعل ما يراه مناسـبا.

- أسـتودعك الله وأتركك لتنام.

نـام حليـم تلـك الليلـة مضطربـا جـدا وهـو يفكـر بأخيـه وبمـا سـيكون وقـع الخـبر عليـه وفي الخطـر مـن بقائـه والظنـون والشـبهات التـي تحـوم حولـه وحـول أخيـه إذا هـو تـوارى.

أما مفلح فكان متكئا على فراشه ويده تحت رأسه يفكر في الحرب ومداها وماذا ستكون نتيجتها على العرب وعلى فلسطين ويتمنى لو كان قومه مستعدون لها ليستفيدوا من الظروف التي تولدها.

ثم انتقل في تفكيره إلى ناحية أخرى واستعرض معاملات الشدة والإرهاب التي صارت الحكومة الاتحادية تعامل العرب بها مما لم يكن للعثمانيين به عهد قبل أن يضع الاتحاديون أنفسهم في أحضان دولة أوروبية – من نفي وتغريب وجبس وتشهير وجلد وسوق إلى الديوان، خشي مفلح أن تقضي هذه المعاملات على بقية الثقة المتبادلة بين المخلصين من العرب والترك للإمبراطورية العثمانية وأدرك أنها نتيجة سياسية ألمانية كانت متبعة في ذلك الزمن، غرضها عزل الأتراك عن بقية العناصر العثمانية وخصوصا عن العرب فلا يعودون يرون لهم غير ألمانيا نصيرا فيميلون بكليتهم إليها ويضعون مقدراتهم بين يديها ولا تعود ميول الأتراك إلى ألمانيا تتعارض مع ميول العرب إلى الإنجليز. فراعته هذه الفكرة وخشي منها على الدولة العثمانية أن تتمزق وعلى العنصر العربي أن تضيع أمانيه القومية إذا هو انفصل عن الأتراك ووقع تحت سلطات أوروبية أقوى من العثمانية وأعرف بطرق الاستعمار وأساليب إضعاف الروح العنصرية.

بقي مفلح غارقا في لجج هذا الأفكار حتى الصباح وإذا هو يسمع قرعا على باب بيته.

قـام وفتـح البـاب وإذا بأخيـه حليـم يجيبـه. فسـأله ومـا الـذي جعلـك تبكـر في زيارتـك لي عـلى خـلاف العـادة.

حليـم: لأمـر هـام – جئتـك في أمـر يسـتدعي التفكـير واتخـاذ التدابـير. وقـص عليـه مـا سـمعه مـن الخـوري.

سـمع مفلـح هـذا الإنـذار فجلـس يراجـع ذاكرتـه ويسـتعرض حـوادث المـاضي مـن يـوم أعلنـت الحـرب فخطـرت لـه حـوادث بـارزة.

الفصلُ الثَّاني
الأحبولة

خطر له أن صديقا جاء يوما وطلب منه أن يرافقه ليحدثه في أمر ذي شأن، فخرج مفلح مع صديقه وهو مطمئن البال هادئه وإذا بالصديق أخذ يحدثه عن ابنه الذي فر ولجأ إلى الحلفاء.

ثم قال لقد جاءني كتاب من ابني يطلب مني معلومات ضرورية معرفتها لجيش الحلفاء الذي يفكر في إنزال قوات على هذه الشطوط ونوع المعرفة هو معرفة المياه وأسعار الحاجيات والوسائط النقلية وعدد الجيوش القريبة المرابطة حوالينا.

قال صديق مفلح له: إذا كنت مستعدا لحمل الكتاب في جيبك والذهاب معي إلى دار الكنيسة الإنجليزية حيث نقرأ الكتاب على انفراد وبدون إزعاج ونفكر في إعداد الجواب ذهبنا وأطلعتك عليه.

- لماذا لا تحمل الكتاب أنت؟

- لأني أخاف.

فللحال خطر لمفلح أنه لا يبعد أن يكون في الأمر دسيسة وخصوصا لأن المحل الذي عينه لقراءة الكتاب قريب من بيت القنصل الألماني، فقال لصديقه:

ما لنا ولهذا؟ إن كان ليدك مثل هذا الكتاب فأتلفه لأن وجوده معك خطر. أما أنا فلست من الخبيرين الذين في وسعهم أن يعطوا مثل هذه المعلومات وأريد أن أبقى بعيدا عن مثل هذه الأمور، ولم يشأ مفلح يومئذ أن يقوم بأي حركة أو يتفوّه بأية عبارة تجعل صديقه يشعر أنه صار يرتاب في أمره فطلب منه صديقه أن يرافقه إلى بيت صديق آخر كانا يزورانه عصارى بعض الأيام فرافقه، وهناك غاب صديقه برهة وعاد وقال: أحرقت الكتاب. فتنفس مفلح الصعداء وقال في نفسه: إن كان هذا قد أحرق الكتاب حقيقة فقد خلصنا من بلية.

وقبل أن ينصرفا أخذ مفلح يفحص جيوبه مخافة أن يكون صديقه دس الكتاب فيها. ولما عاد إلى البيت فحص الطريق ومكان جلوس ذلك الصديق فلم يجد أثرا لشيء فقال مفلح في نفسه: ربما أن صديقي يريد أن يسلمني لقنصل ألمانيا متلبسا بجريمة ليدفع عن نفسه الريب والظنون التي حامت حوله من فرار ابنه.

***

إحدى المحاولات

ثم خطر لمفلح أن قنصل ألمانيا دعاه أيضا مرة قل دخول الدولة العمانية في الحرب وحدثه عن ألمانيا وعظمتها وقوتها، وقال له: إن مصالح العثمانيين تستدعي موالاتكم لألمانيا، فأجابه مفلح: لو كان لكم أسطول يحمي البحر المتوسط، لأن شطوط الدولة العثمانية من الأستانة إلى مرسين كلها عليه، فقال القنصل: الألغام تحمي المدن من

الأساطيل. ثم انتقل القنصل إلى الكلام عن العرب فقال إن العرب المسلمين يحبون إنجلترا والكاثوليك النصارى يتفانون في حب فرنسا والروم الأرثوذوكس في حب روسيا والبروتستانت إنجلترا وليس لألمانيا من يحبها من العرب.

***

دهاء مفلح

أدرك مفلح ماذا يجول في نفس القنصل فقال له: ليس لكم إرساليات ومدارس ومستشفيات مثل الإنجليز والفرنساويين والروس تستميلون بها الناس، ومع ذلك فحب طوائف العرب المختلفة للفرنساويين والإنجليز والروس يجب أن يدلك على وفاء العرب. فإذا استفادت ألمانيا اليوم من تقلص نفوذ إنجلترا أو فرنسا أو روسيا في البلاد العثمانية وعملت على حماية العرب من الظلم الذي تعاملهم به حكومة الاتحادية، فإن العرب قلوبهم كلها تشبع بحب ألمانيا. وكان مفلح يعلم أن حكومة الاتحاديين أقدمت على اضطهاد العرب وخصوصا المسلمين إلا بتشجيع الالمان للأتراك على السياسة العنصرية لأن الأتراك لم يسيئوا إلى العرب في الحروب التي خاضت غمارها العثمانية قبل هذه. وأراد مفلح بحديثه هذا أن يحمل القنصل على إقناع جمال باشا الكبير بالعدول عن اتباع سياسة الشدة مع العرب.

يأس القنصل

فقال القنصل: أما الكاثوليك فحب فرنسا في دمهم ولا استأصل هذا الحب إلا بإسالة الدم. أما أبناء الطوائف الباقية فقد انقضى وقت العمل معهم لاستمالتهم لأن الساعة الحادية عشرة دقت. أما أنت فيجب أن تتبع سياسة موالية لألمانيا ولك ما تكلمنا عنه من المساعدة والتخصيصات، فقال مفلح: إن السياسة الألمانية هي تستطيع دون سواها استمالة قلوب الناس إلى ألمانيا.

انقبض القنصل لهذا الجواب وقام مفلح فانصرف.

وتذكّر مفلح أيضا جوابا على سؤال ألقاه عليه دكمان مدير سكة حديد الحجاز مرة وهو: متى تظن أن حكومتكم تدل الحرب؟

أجاب مفلح لا أعتقد أن رجال حكومتنا جنوا ليدخلوا الحرب. مر علينا أكثر من ألف سنة ونحن نطلب من الله أن يخلف بينكم، أمن الحكمة بعد وقوع الخلاف أن نزج بأنفسنا فيه؟ فانتفض دكمان وقال لمفلح أنت أشد تعصّبا من المسلمين أنفسهم. فأجاب: أنا متعصّب لقومي وبلادي.

تذكّر مفلح هذه الحوادث وغيرها فعلم أن صراحته وميوله السياسية هي التي أضرت به، وتأكد أن الدسائس تدس له، والوشاة يشون به فرأى من الحكمة أن يتوارى عن العيان إلى أن تتنازل حمى الحرب وتبرد حرارة أدمغة رجال الجيش فيصير يسهل عليهم التفكير ومحاكمة الأمور.

الفصلُ الثَّالث

بعـد أن مـرت هـذه الحـوادث وغيرهـا بخاطـر مفلـح الغسـاني أدرك أن المسـألة ليسـت بسـيطة، فرجـح أن يتـوارى إلى أن يسـكن هيـاج الخواطـر الـذي يرافـق كل إعـلان حـرب ويصـير في إمكانـه أن يدافـع عـن نفسـه إذا وقـف أمـام محكمـة عرفيـة، فقـال لأهلـه: أنـا ذاهـب في بعـض المهـام إلى عـكا وسـأعود غـدا أو بعـد غـد وأسـتأجر كرسـيا في عربـة إلى النـاصرة وقـال للحـوذي أنتظـرك في مقهـى الحـاج زعـلان.

وسـافر إلى الناصرة فبات تلك الليلة.

***

عند قائد الفرقة

وفي الصبـاح زار مـع صديـق لـه المرحـوم صبيـح بـك نشـأت الجنـدي العراقـي العـربي الباسـل الـذي كان قائـدا للفرقـة العثمانيـة المرابطـة بالنـاصرة، فتحدثـا عـن الحـرب وأعـرب مفلـح عـما بداخلـه مـن الخـوف عـلى فلسـطين والبـلاد العربيـة مـن الغـزوة الصهيونيـة التـي لا يبعـد أن تسـتفيد مـن الحـرب.

أمـا صبيـح بـك فأعـرب عـن خوفـه عـلى بـلاد العـرب مـن الاسـتعمار الألمـاني إذا انتـصرت ألمانيـا في الحـرب أكـثر مـن خوفـه مـن الاسـتعمار الصهيـوني، وقـد طـال الجـدال بـين صبيـح ومفلـح أكـثر مـن سـاعتين فتبـيّن مفلـح أن صبيحـا قائـد عـربي بـكل معنـى الكلمـة ولا يمكـن أن يـدل عـلى مفلـح أو

يقبض عليه إذا سألته عنه القيادة فاطمأن.

قام مفلح من عند صبيح بك وزار قائم مقام الناصرة فوزي بك ملكي يومئذ وعاد وتغدى في أوتيل فكتوريا عند السيد نعمة الصفوري واستراح قليلا وإذا به يسمع قرعا على باب غرفته.

***

القسيس الصالح

- من الطارق؟

دخل القس الفاضل صالح سابا وكان قادما من حيفا وعلائم الاضطراب بادية على وجهه.

مفلح: تكلم بما تعلم ولا تخفي شيئا فأنا على استعداد لسماع أي خبر.

- قبضت الحكومة على شقيقك فلان وأحدق البوليس والدرك ببيتك ولما لم يجدوك فتشوا بيوت أقربائك وطيروا البرقيات إلى عكا يسألون عنك.

مفلح: وماذا فعلوا بأخي؟

- قالوا إنهم يريدون إبعاده مع آخرين إلى دمشق، أما أنت فيغلب على الظن أنهم يريدون أن يسوقوك إلى الديوان العرفي.

- مـا رأي القس نبيل؟

- رأيي أن تتوارى.

- وهل لا تحوم حولنا الشـبهات إذا توارينا بعد الطلب؟

- على كل توارَ لتسـتفيد من الوقت وتعرف ماذا يُراد بك.

***

الشيخ وجيه الكيلاني

كان يسـكن النـاصرة رجـل كبـير بمبادئـه وأخلاقـه وعلمـه وشـهرته؛ اسـمه الشـيخ وجيـه زيـد الكيـلاني والـد السـيد سري الـذي يشـغل اليـوم وظيفـة باشـكاتب محكمـة صلـح النـاصرة، ولـو كان أبـوه حيـا لاشـتغل عـلى مـا نعتقـد وظيفـة كـبرى في سـلكه.

الشـيخ وجيـه الشريـف الحسـيب الكريـم المبـادئ هـو الـذي قدمتـه الدولـة العثمانيـة للحكومـة الأمريكيـة ليشـغل منصـب شـيخ إسـلام في جزائـر الفلبـين.

ذهـب الشـيخ وجيـه إلى أمريـكا فالفلبـين وقـام بمهمتـه قيامـا أكسـبه احـترام الحكومـة الأمريكيـة وتقديـر الـرأي العـام حتـى صـارت تلقّبـه الصحـف الأمريكيـة في أمريـكا والفلبـين بنبـي المسـلمين، فافتخـر بـه العـرب في المهجـر وفي البـلاد العربيـة.

اعتلّت صحة الشيخ وجيه فأراد تبديل الهواء واختار الناصرة مقرا قبل الحرب وفي غضونها. فعرفه ضباط الجيش في الناصرة والقدس والشام واحترموه احتراما يليق بمقامه وعلمه ورفعة مبادئه.

وكان مفلح قد تعرّف به قبل الحرب فخطر له أن يستشيره في هذه الساعة الدقيقة فقام وقصد إلى بيته فرحب به كثيرا وسأله عن حاله فقص عليه مفلح حكايته فاضطرب لها الشيخ واهتم بها كثيرا ونصح مفلحا أن يتوارى.

سأل مفلح عما إذا كانت الحكومة لا ترتاب في أمره إذا هو اختفى ولم يُلبّ طلبها.

قال الشيخ لمفلح: يظهر من طلبهم لك أن الطاسة ضائعة. فما يترتب من ضرر على اختفائك لا يوازي ما قد تتعرض له من الخطر بتسليمك نفسك. خصومك من الصهيونيين دهاة ولا يعدمون وسيلة أو يتركون سانحة تمر ولا يستفيدون منها فضلا عن أن خصوم المخلصين من أبناء قومك كثيرون.

أطرق الشيخ قليلا ثم رفع رأسه وقال: الحكومات في الحرب مثل النار تلتهم من في وجهها ولا تفرّق، فتوارى ليكون لنا فرصة لمعرفة السبب الحقيقي في طلب الحكومة لك ولخمد النار فيصير في الإمكان استعمال الطرق الحكيمة لإيقاف من بيدهم الأمر على الحقائق.

حكمة الشيخ وجيه

قال الشيخ: أنا أخشى كثيرا من أدوار الانتقال.

انتقلت الحكومة العثمانية من حالة السلم إلى حالة الحرب فاليوم يتخذ الساسة الذين بيدهم مقاليد الأمور من الموقف وسيلة للقضاء على الأحزاب المعاضة لهم وخصوصا لأن الألمان يحرضونهم على اتباع السياسة العنصرية.

ويستفيد الحكام وأصحاب النفوذ من الحالة لينتقموا من منتقديهم.

ويتقرب المتزلفون من رجال الجيش بالوشايات والدس على المخلصين لأنهم يحسبون بقاءهم أحرارا خطرا عليهم.

كل دنيء يدس على خصمه ويشي به في دور الانتقال.

الحالة في أدوار الانتقال وفي بدء الحروب تصبح فوضى وخصوصا لأن السلطة تنتقل من أيدي رجال الإدارة والقضاء إلى أيدي رجال الجيش وهؤلاء يسكرون بخمرة القوة ويتلذذون بالبطش. كلمة واش أو جاسوس كافية لتجعلهم يقضون على حياة بريء مخلص، وانصرافهم إلى تدبير الخطط العسكرية وإلى الاهتمام بسلامة الجيش وبإحراز النصر بشغلهم عن كل شيء آخر ولا يترك لهم فرصة لدرس الذين يحتكون بهم ويتقربون منهم ولا للنزوى. فإذا عرف العاقل أن الوشاة وشوا به يجب أن يتحاشى الوقوع بأيدي رجال الجيش قبل أن يتوسل بالوسائل التي تجلي لهم الحقائق.

الفصلُ الرَّابع
قرار مفلح الأخير

أصغى مفلح إلى هذه الأقوال فحصلت عنده قناعة بوجوب عدم تسليم نفسه وقرر نهائيا أن يتوارى، وصار يخاف أن يكون الناس كلهم عيونا عليه فعاد إلى الأوتيل وانسل تحت جنح الظلام إلى بيت صديقه الحميم السيد كامل قعوار واختفى عن العيان وكتم أمره حتى عن أخلص أصدقائه.

خصص صديق الغساني له غرفة خاصة في بيته واحتفظ ببابها مغلقا فلم يكن أحد يدخلها من غير أهل البيت، وكانت الأسرة الكريمة التي انقطع مفلح عن الناس عندها مؤلفة من صاحب البيت وزوجته ووليدهما، وهم نصارى ينتسبون إلى أسرة قعوار العريقة التي تمت بنسبها إلى عرب الغسانيين.

دخل مفلح البيت وهو ينوي أن يتوارى فيه أسبوعا ليتسقط الأخبار عن سبب طلبه ومقدار اهتمام الحكومة بأمره، وليرسم لنفسه خطة للمستقبل، ولم يكن أحد يعرف بمخبأ مفلح في الأيام الأولى سوى أصحاب البيت والشيخ وجيه زيد الكيلاني وإخوان الغساني.

الشيخ وجيه وصبيح بك

زار الشيخ وجيه زيد في ثاني يوم قومندان الفرقة صبيح بك نشأت وتحدّث معه عن الأحوال الحاضرة، ثم تكلموا عن معاملة الحكومة للأهالي، فقال الشيخ وجيه: لم يكن لنا عهد بمثل هذه المعاملات الشديدة من قبل الحكومة العثمانية في الحروب السابقة، فالناس يُساقون لأقل وشاية إلى الديوان العرفي أو يُبعدون عن بيوتهم إلى الشام والقدس والأناضول حتى أصبحوا غير آمنين على أنفسهم، وصار كل واحد ينتظر في كل ساعة أن يتلقى أمرا بالنفي أو يُساق إلى الديوان العرفي فيستولي الحوف على الناس جميعا، ولا تخفاك الحالة الفقرية العمومية، فضلا عن أن من يملك كمية من المال ويحتفظ بها لينفقها بحكمة على عائلته يضطر إذا نُفي أن يقسمها بينه وبين عائلته فلا تعود تكفيهما إلا مدة قصيرة.

قال صبيح بك: ماذا نعمل يا أستاذ؟ أنور بك هو الذي ألقانا في أحضان ألمانيا فصارت السياسة الألمانية تتصرف بنا وبمقدراتنا كما تشاء وهي على ما يتراءى لي تحض الأتراك على العرب لتتولد الكراهية ويستحكم العداء بين العنصرين فيشعر الأتراك الذين بيدهم مقاليد أمور الدولة بحاجتهم إلى معونة الألمان وعضدهم ليتغلبوا على خصومهم.

قال الشيخ وجيه: إني أخشى سوء عاقبة هذه السياسة، أخشى أن يقضي الانقسام على مستقبل العرب والترك معا.

الحملة على الترعة

قال صبيح بك: اسمع هذه الحكاية فهي وإن كانت من الأسرار العسكرية فأنا أحدثك بها لثقتي بغيرتك على سلامة الدولة التي تضمن سلامتها مستقبل العرب قومنا، أنت تعلم أني كنت رئيس أركان حرب الفيلق.

- نعم.

- وقد طلبوا رأيي في تسيير الحملة على الترعة فقلت لهم ما خلاصته إن مهاجمة الترعة ودخول مصر على رغم ما فيه من الصعوبة فهو غير مستحيل ويمكن لجيش منظم معنوياته قوية أن يجتاز الترعة ويحتل مصر، ولكن الترعة كما تعلم هي كالحبل الشوكي في جسم الإمبراطورية البريطانية وبريطانيا تبذل كل ما لديها من وسائط لحمايتها.

ولذلك يجب أن لا نحاول دخول مصر قبل أن نؤلف جيشا لا يقل عن نصف مليون مجهزا بالعتاد والذخيرة التي تكفيه ثلاث سنين على أقل تعديل.

الغرض منها

وما كدت أصرخ بهذا حتى امتعض رئيس أركان الحرب الألماني وثاني يوم تلقّيت أمرا بتعييني قائدا لهذه الفرقة وتعيين غيري أركانا للحرب وأنا أخشى أن لا يكون الغرض من مهاجمة الترعة سوى إشغال الإنجليز بتقديم العرب وقودا وضحايا لحركة ليس لها فائدة سوى تخفيف الضغط على ألمانيا في الساحة الغربية حتى إذا فازت تستعمرنا وتعاملنا كما تعامل العبيد في مستعمراتها الإفريقية.

الشيخ وجيه: وهل إذا فاز الإنجليز والفرنساويون لا يستعمروننا؟

***

رأي صبيح

صبيح: بلا ريب ولذلك كنت أتمنى أن نحتفظ بحياد مسلح والدول لا تخرج من الحرب إلا وهي كلها خائرة القوى فحينئذ يمكننا أن نلغي الامتيازات ونؤمن استقلالنا التام ونقوي أنفسنا قبل أن يسترد خصومنا قواهم.

- أما وقد دخلنا الحرب؟

- يجب أن نحتفظ ببلادنا ونحافظ على مصالحنا فلا نستسلم بكليتنا للألمان ونغتنم أول لفرصة لنؤمن استقلالنا التام الناجز.

- هـل سـمعت أن حكومـة حيفـا تلقـت أمـرا بالقبـض عـلى مفلـح الغسـاني وبسـوقه إلى الديـوان العـرفي؟

- بالأمـس زارني هـذا الرجـل وتعرفـت عليـه لأول مـرة معرفـة وجاهيـة وقـد كنـت أسـمع أنـه مخلـص لوطنـه وقومـه وأنـه يرغـب كثـيرا في التفاهـم والتعـاون بـين العـرب والـترك. فهـل لـك أن تخـبرني شـيئا عـن حالـه إذا كنـت تعرفـه معرفـة حقيقيـة؟

***

الشيخ يصف مفلح

- سـألتني أن أخبرك شـيئا عما أعرفه عن مفلح الغساني.

- نعـم، فلقـد صرت أود أن أعـرف عنـه شـيئا بعـد المقابلـة التـي جـرت بينـي وبينـه وبعـد العلـم أن الحكومـة تطـارده.

- عرفـت هـذا الرجـل كـما تقـول يحـب أن يتفاهـم العـرب مـع الـترك عـلى أسـاس المسـاواة لتتقـوى باتفاقهـم الدولـة وتصـير قـادرة عـلى رد المطامـع الاسـتعمارية، وهـو يمقـت المنافقـين مـن العـرب الذيـن ينزلفـون مـن الأتـراك ولا يقولـون لهـم الحقيقـة.

ويخـاف مـن الصهيونيـة أن تكـون مطيـة الاسـتعمار في فلسـطين وسـوريا والعـراق ويعتقـد أن الصهيونيـة تميـل مـع أي حكومـة تـروج لهـا مصلحتهـا، فـإذا كانـت اليـوم صديقـة للعثمانيـة فـلا يبعـد أن تميـل غـدا إلى ألمانيـا أو إنجلـترا بحسـب مقتضيـات المصلحـة.

صبيح يصوّر قنصل ألمانيا

وكان مفلح يرغب في أن توالي الحكومة العثمانية الإنجليز لأن أسطولهم قوي في البحر المتوسط وكل البلاد العثمانية واقعة على شواطئه، ولذلك صار قنصل ألمانيا وبعض العرب المستتركين أعداء له ويشون به كلما لاحت فرصة، ولعل هذه المطاردة من قبل الحكومة ناشئة على الأكثر من وشايات قنصل ألمانيا.

صبيح بك: عرفت هذا القنصل وأظنه داهية. هو حديدي الإرادة قاسي القلب، يسخر الناس لسياسته ويعمل ليميت إرادتهم في إرادته ويساعده في موقفه كونه يستند إلى دولة قوية ويلاقي ضعفا من كبار موظفينا.

هذا الرجل يصوّر لي بأعماله شكل الاستعمار الألماني المخيف إذا لا سمح الله وقعنا فيه.

حدثني مرة عن مصر وأخذ يصف لي خيراتها وما يعود على الدولة العثمانية من المنافع إذا هي استولت عليها وهو يظنني جاهلا بهذا المقدار ولا أفهم أن الغرض من تجهيز حملة على الترعة هو إشغال الإنجليز وليسحبوا قواتهم من الساحة الغربية ليخفف الضغط عن ألمانيا.

الشيخ وجيه: وقد حدثني مفلح أن القنصل حدثه مرة قبل أن ندخل نحن في الحرب وأراد أن يقنعه ليشتغل في توجيه أنظار العرب إلى مصر

وتشويقهم لفتحها وضمها إلى الدولة العثمانية ليتقوى العنصر العربي بالمصريين ويستولي على زمام الدولة العثمانية.

***

السياسة الألمانية

صبيح: وليمان فون سندرس يريد من الأتراك أن يتركوا العرب وأن ينقلوا فريقا منهم إلى الأناضول ليندمجوا بالأتراك فتضعف عنصريتهم فضلا عن أنه يريد أن يضعف بلاد العرب بإدخال عناصر الأكراد والأرمن إليها فلا تبقى قوية غير العنصرية التركية في الدولة.

***

عودة إلى الغساني

صبيح: قلت إنك تظن أن سبب مطاردة الحكومة لمفلح هو قنصل ألمانيا.

- أعتقد أنه من أكبر العوامل.

صبيح: ومع ذلك فلما تكلمت معه عن الخطر الألماني على العثمانية وبلاد العرب وافق على رأيي ولكنه قال إن الخطر الصهيوني أعظم كثيرا منه لأنه خطر كبير شامل.

- أنا أعرف أن المسائل الشخصية لا تؤثر على نفسه.

- لـو جـاءني سـؤال عنـه أتجاهـل وجـوده إذا كان مختبئـا في النـاصرة. وأحـب أن أراه مـرة أخـرى وأتحـدث معـه طويـلا ولكننـي أخـاف عيـون الجواسـيس.

الأفضـل ألا تقابلـه فالمقابلة إذا اكتشـف أمرها قد تضر بك وبه.

الفصلُ الخامس

مضابط الفساد

صبيح: أريد أن أطلع الأستاذ على بعض المضابط وآخذ رأيه فيها إذا عاهدتني بكتمان أمرها. أنا لا أعرف البلد هنا ولا أعرف ماهية الذين قدموا لي هذه المضابط ولا حقيقة الموشى بهم، ولذلك أرغب في الوقوف على رأيك حتى لا أسيء معاملة أحد بدون حق وحتى لا أكون مطية الوشاة المفسودي الأخلاق.

قال صبيح هذا وفتح درج طاولته واستخرج مغلفا كبيرا ففتحه وتناول ورقة منه وناولها إلى الشيخ وجيه ففتحها الشيخ وقرأ فيها ما يلي:

«إن الأشخاص المذكورين أدناه هم أعداء الدولة وبعضهم جواسيس عليها أو يفتحون بيوتهم للجواسيس ودائما يتكلمون ضدها في اجتماعاتهم الخاصة ويصلّون إلى الله أن يخلّصهم منها وبعضهم مثل فلان وفلان يفرقون بين العناصر أو بالأحرى بين العرب والترك، فبقاؤهم في الناصرة خطر على الفرقة. ولما كنت من المخلصين للدولة المتفانين في حبها جئت أعرض الكيفية والأمر لوليه أفندم

«الإمضاء»

كتمناه حرصا على كرامة أسرته.

رأي الأستاذ في المضبطة

قرأ الشيخ وجيه هذه المضبطة وألقاها من يده باشمئزاز والتفت إلى صبيح بك وقال: اعذرني يا مولاي إذا خرجت من طوري فإني أتألم لوجود مثل هذا المفسد بين العرب. كنت أود في مثل هذه الأحوال أن يعطف العرب بعضهم على بعض وإذا توجّهت إلى أحدهم تهمة من غريب أن يتألبوا على دفعها.

هذه المضبطة نتيجة حسد وحزازات شخصية وعائلية ووليدة طبائع الفساد، فأرجو أن تهملها وتوصد بابك في وجه صاحبها لأنه دنيء. وقد يستعمل دخوله عليك وخروجه من عندك وسيلة لإيهام الناس أنه من المقربين فيوقع بينهم ثم يحملهم على أن يشوا بعضهم ببعض ويعدهم بالمساعدة عندك ليستلب أموالهم.

انبذ أمثال هذا الذين يفسدون في الأرض ويتسلطون على عباد الله ويشغلون الحكام ويبعدون ما بينهم وبين الشعب.

***

القائد العاقل الشريف

شكر صبيح بك الشيخ وجيه على هذه النصيحة وقال له: لقد أنقذتني من قلق، فقد كنت أميل إلى رأيك هذا حتى لا أوقع الناس في عذاب ولا أفرق بينهم وبين عائلاتهم ولا أنشر حكم الإرهاب في هذا المحيط، ولكنني كنت من الجهة الأخرى أخشى إذا فعلت هذا أن أكون مقصرا أو خائنا لواجبي.

أما وقد تفضّلت علي برأيك الأصيل فأنا أمزق هذه الوثيقة على مرأى منك وأنام مرتاح البال ومتى عاد هذا المفسد لا أسمح له بمقابلتي فيفهم هو ومن كان على شاكلته من أنا وماذا أريد.

***

الذهول

انقطع مفلح الغساني في الغرفة المخصصة له في بيت صديقه بالناصرة وانصرف إلى التفكير في وضع خطة يتمشى عليها في المستقبل فيما يتعلّق بشؤونه الخاصة والشؤون العامة.

وفي أحد الأيام بينما كان غارقا في تأملاته انصرف بكليته على رغم منه إلى التفكير في ماذا تكون نتيجة الحرب على الدولة العثمانية وعلى العرب خصوصا، وتمنى لو تأخرت الحرب عشرين سنة حتى يتمرن العرب على السياسة التي دخلوا معركتها بعد إعلان الدستور العثماني وحتى يكثر عدد المتعلمين منهم وإلى أن تتربى فيهم روح الجندية

ويتدربوا على التنظيم الاجتماعي والسياسي، وما شعر إلا أن الدنيا أظلمت في عينيه فأسند رأسه بيمناه وأخذ يتفرس في الحائط فجمدت عيناه واستولى عليه ذهول عميق دام نحو نصف ساعة.

قرع الباب قرعة خفيفة فلم يسمع مفلح. قرعة ثانية فلم ينتبه ففتح صاحب البيت الباب بلطف ليرى إذا كان مفلح نائما فوجده في غيبوبة فدنا منه ووضع يده على كتفه وقال: مفلح؟

***

توارد الخواطر

فحول مفلح بصره فأبصر كاملا فتنهد قليلا ثم حاول أن يخفي ما به فابتسم وقال لكامل: مرحبا، قد كنت أفكر في أمر ذي بال وتعبت فتولاني شيء أشبه بالنعاس.

قال كامل: سأبشرك بشارة تسري عنك، إن صديقك جبران يريد أن يراك.

مفلح: وكيف عرف أني هنا؟

صاحب البيت: الذين صاروا يعرفون بوجودك عندنا كثيرون.

مفلح: ليدخل صديقنا، حقا إنه خير علاج لما أنا فيه.

الصديق – بعد السلام على طريقة العرب قال لمفلح: وكيف أنت؟

وقبل أن ينتظر جوابا قال: أما كنت تفضل أن تتأخر الحرب هذه عشرين أو ثلاثين سنة حتى يصير في وسع العرب أن يستفيدوا منها؟

مفلح: وما رأيك في نتيجتها؟

الصديق: وهل من نتيجة غير انفصال العرب عن الترك ووقوع العرب في استعمار دولة أوروبية؟ سيان عندي أكانت فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا.

مفلح – وهو يريد أن يسبر غور رفيقه: أولا تظن أن الاستعمار الأوروبي أفضل للعرب من الاستعمار التركي؟

الصديق – ضحك متألما لأنه لم يكن متوقعا مثل هذا السؤال من مفلح وقال: نحن نحكم أنفسنا بأنفسنا إلى درجة ما واليد القابضة على أعناقنا وإن كانت خشنة الملمس فهي غير حديدية لأنها تكاد تكون شرقية من جهة وضعيفة من أخرى، أما إذا قبضت علينا يد أوروبية فهي ستكون فولاذية وإن لبست قفازا حريريا.

الغساني تبسم وقال: ولكنْ قليلون الذين يفكرون بهذا ومع ذلك فهو مما لا حكم لنا عليه. قل لي هل من طريقة نخدم بها العرب وننفعهم؟

الصديق: لا سبيل لنجاة العرب بغير الثورة.

- وأي ثورة تعنى بلا مال ولا تنظيم ولا تدريب عسكري؟

الصديـق: هـذا بحـث سـابق لأوانـه. دعنـا نترقـب الفـرص فـإذا لاحـت واحـدة منهـا وكان في مقدورنـا تحيّناهـا.

بعـد نحـو شـهر أراد مفلـح أن يغـادر بيـت صديقـه الكامـل مخافـة أن يوقعـه في مشـكلة ولكـن ذلـك الصديـق وابنـه الأمـين مانعـا أشـد الممانعـة ولم يـتركا مفلحـا يغـادر البيـت وقـال الصديـق: أنـت في بيتـي فـلا أتـركك قبـل أن أطمـئن عـلى سـلامتك.

وكان لكامـل ولـدان. أمـين في سـن العشريـن والآخـر بـاز لم يتجـاوز الثامنـة عـشرة.

تعلـق الفتـى الكبـير بالغسـاني تعلّقـا شـديدا وكان أشـد إلحاحـا عليـه مـن أبيـه ليبقـى عندهـم وجاهـر بأنـه يتمنـى ألا يخـرج الغسـاني مـن غرفتـه وألا يقابـل غـير النـاس الذيـن يركـن إليهـم كل الأركان لأنـه يخـاف مـن أن يفتضـح أمـره وينكشـف سره فتمسـكه الحكومـة (والحديـدة حاميـة) وتصـب عليـه جـام غضبهـا.

***

شعور الغساني

لم يكـن الغسـاني يريـد الخـروج مـن البـلاد خوفـا عـلى أولاده ولئـلا تضيـق الحكومـة عـلى إخوتـه وأصحابـه. ولأنـه كان لا يـزال يأمـل بانعقـاد الصلـح ويتمنـى اتحـاد الأتـراك والعـرب اتحـادا متينـا لتتقـوى باتحادهـما الدولـة

العثمانيـة وتقـوى عـلى الوقـوف في وجـه المطامـع الاسـتعمارية في البـلاد العربيـة.

ولما كانـت هـذه ميولـه ارتـاح كثـيرا لمـا رآه مـن مـكارم أخـلاق هـذه الأسرة العريقـة في عروبتهـا. وقـرر أن يبقـى عندهـا زمنـا ويراقـب الأحـوال عـن قـرب.

***

الروايتان

صرف مفلـح شـهورا في مخبئـه يشـتغل بتأليـف روايتـين تمثيليتـين واحـدة أسـماها «نجـدة العـرب» عـن حـرب البسـوس والثانيـة أسـماها «في ذمـة العـرب» عـن حـرب ذي قـار توخـى فيهـما وصـف عـادات العـرب وتقاليدهـم ونجدتهـم ونخوتهـم، وكان يرمـي بذلـك إلى تعريـف أبنـاء المـدن والشـبان النصـارى والمسـلمين بمـا عنـد العـرب مـن مبـادئ وأخـلاق طيبـة وميـزات عاليـة تحببهـم بقوميتهـم وتجعلهـم يفتخـرون بهـا ويفاخـرون بالانتسـاب إليهـا. ولمـا فـرغ مـن تأليفهـما وضعهـما في علبـة مـن التنـك ودفنهـا تحـت الـتراب وشرع يضـع كتابـا آخـر مفيـدا لاقتصاديـات البـلاد هـو كتـاب (الزراعـة الجافـة).

الفصلُ السَّادس

كان مفلـح مـن حـين إلى آخـر يغـادر النـاصرة ويـزور تـارة قـرى المـرج وأخـرى قـرى طبريـا وأخـرى بـلاد صفـد وأحيانـا غـور الأردن فيلاقـي مـن النـاس عطفـا كثـيرا ولمـا يتأكـد أنـه لا يوجـد تحـرٍّ شـديد عليـه يعـود إلى عشـه.

***

سـليم الأحمد عبد الهادي

نـزل مفلـح مـرة إلى حيفـا ليشـاهد أولاده، فرافقـه نجـل صديقـه الكبـير الأمـين إلى عنـد مـاء السـعادة لأن الشـاب لم يطمـئن لسـفر مفلـح منفـردا. ولكـن مفلحـا رأى أن يفـترق عـن رفيقـه عنـد السـعادة فسـبقه رفيقـه ودخـل مفلـح البلـدة بعـد الغـروب.

***

إلى الديوان العرفي

وفي ثـاني يـوم أرسـل مفلـح يطلـب مـن صديقـه السـيد عبـد اللـه مخلـص أن يـزوره في المسـاء فوعـد.

وقبـل الغـروب أرسـل ذلـك الصديـق بطاقـة يقـول فيهـا: اليـوم وصـل مخفـورا سـليم بـك عبـد الهـادي وهـو في طريقـه إلى الديـوان العـرفي في عاليـة وقـد كفلتـه وأخذتـه ليبيـت عنـدي فتعـال متنكـرا واسـهر معنـا.

فقال الغساني للرسول وكان عاقلا، ارجع وقل للصديق أني شديد الرغبة في رؤية سليم بك فتعال أنت وهو لا بأس عليكما لأنه مكفول أما أنا فخروجي وتجوّلي في الشوارع لا يخلو من الخطر.

لبى سليم والمخلص الدعوة ولما أبصر مفلح سليما مقبلا اعترته قشعريرة وتولاه الخوف عليه لأن سليما كان أكبر كثيرا من رجل عادي.

***

يأبى الفرار

جلس الأصدقاء الثلاثة وأخذوا يتساءلون عن سبب طلب سليم وإرساله مخفورا فلم يستطع أحد منهم أن يهتدي إلى معرفة شيء.. وأخيرا قال سليم: كان حزب اللامركزية بعث إلي ببطاقة تعلمني أنهم اعتبروني عضوا في الحزب فقبلتها.

فسأله الغساني: هل بينك وبين الحزب مخابرات؟

سليم: كلا.

- كم جندي يخفرك؟

- جندي واحد لا غير.

- ألا تستطيع أن تفلت منه؟

- في وسعي أن آخذه معي إلى حيث أريد.

- إذا غـدا بعـد أن يسـلمك كفيلـك إلى الحكومـة وتخـرج أنـت والجنـدي مـن حيفـا. شـمعا الخيـط..

- إلى أين؟

- اختبـئ عنـد أصحابك الغزاوية إلى أن ترى ما يكون.

ووافـق المخلص على رأي مفلح.

سـليم: لسـت بفاعـل! – وكان رحمـه اللـه يحسـن النيـة ويعتمـد كثـيرا عـلى ذكائـه وسـعة حيلتـه وبـراءة ذمتـه وعـلى كـون كبـار رجـال الحكومـة العثمانيـة أكثرهـم قريبـي الإيجـاب يحترمـون أشراف القـوم ويصدقونهـم.

مفلـح: إني أخـشى عليـك مـن السياسـة الألمانيـة التـي صـار لهـا نفـوذ عظيـم عـلى الأتـراك ولولاهـا لكنـا نتدبـر مـع رجـال حكومتنـا.

- لسـت بهـارب مهـما كان الأمـر لأني أخـشى أن يضيقـوا عـلى عمـي حافـظ باشـا في شـيخوخته ويهينـوه

فألـح الصديقان على سـليم وقالوا: لا تكن أول كبش للمحرقة!

- ومـا معنـى الفـرار والاختفـاء في حجـور النسـاء لا- لا أفـر وأتـرك عمـي عرضـة للاضطهـاد والتضييـق عليـه.

مفلـح – اختبـئ وإيـاك إلى حـين، لنقـف عـلى مـا يدلنـا عـلى نيـة الحكومـة، فـإن رأينـا أنهـا تنـوي البطـش بالعـرب ألفنـا عصابـة كعصابـة الحيدريـين في بعلبـك وناوأنـا الحكومـة وأعـداء العـرب فـإذا قتلنـا في المعـارك نمـوت

كراما، وإن لم تكن تنوي البطش بالعرب سلمنا أنفسنا لها ودافعنا عن أنفسنا وتفاهمنا معها.

***

يسلم نفسه

قال السليم: لا سبيل فلا تتعبوا أنفسكم. فصمتنا جميعا محتارين آسفين. وسافر سليم ثاني يوم إلى عكا ورافقه صديقه إليها وكان متصرفها يومئذ هاشم بك الأتاسي. فلما زاره سليم مع صديقه دفع إليه المتصرف جريدة بيروتية وفيها أن الديوان العرفي طلب الفريق الأ؟ول من الشهداء بأسمائهم وكانوا أكثرهم لا مركزيين وبينهم المرحوم عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الأدبي وكان سليم واحدا منهم. وأراد هاشم بك أن ينبه سليما بهذا إلى حرج موقفه.

وبعد خروجه من عند المتصرف توسّل إليه صديقه أن يهرب لأنه لم يبق ريب في نية الحكومة فأبى وسافر إلى بيروت وسلم نفسه إلى الديوان العرفي ذلك التسليم الذي أفقد البلاد رجلا كانت تحتاج إليه.

***

سليم في الديوان العرفي

زُجَّ المرحوم سليم الأحمد عبد الهادي بسبب طهارة قلبه وصفاء نيته في سجن الديوان العرفي بعالية وضُم إلى الفريق الأول من الشهداء الأبرار.

الفصلُ السَّابع

الشُّبَّان المتحمِّسون

دخل ابن مضيف مفلح الكبير عليه يوما وقال: هنا فريق من الشبان المتحمسين يريدون أن يقابلوك ويأخذوا رأيك في أمر هام.

سأل مفلح عن أسمائهم ولما عرفهم خرج وقابلهم فأظهروا له تأثرهم الشديد من قبض الحكومة على بعض أحرار العرب وسوقهم إلى الديوان العرفي وقالوا: لقد دنا وقت العمل ونحن نفكّر بالقيام بثورة على الحكم التركي.

فقابل مفلح هذا الشعور بالاحترام وألقى نظرة على هؤلاء الشبان الذين لم يكونوا يملكون سوى الإخلاص المتناهي الذي يدفعهم ليقدموا أنفسهم محرقات على مذبح هيكل الوطنية المقدس وأشفق عليهم لأنه خاف من أن يخسروا أنفسهم دون أن يستطيعوا القيام بعمل نافع للبلاد ومن أن تؤدي أي حركة يقومون بها لعرقلة ما يحتمل أن يكون العقلاء المجربين يدبرونه وقال في نفسه: غريب اندفاع أبناء هذه الأمة! كل يريد تطبيق أي فكرة تخطر له فورا وقبل أن يستعدوا لها. ولكنه عاد فباحثهم في الأمر وقال: أتقدرون أهمية العمل الذي تنوون القيام به والأخطار التي تحدق بكم؟؟

فقال أحدهم: وهل يمكن للعرب أن ينالوا حريتهم بغير خسارة مئات وألوف منهم؟

لـو فرضنـا أنـه مـات مـن العـرب في الثـورة عـشرة آلاف، ألا يقتـل ويمـوت أضعـاف أضعـاف هـذا العـدد في الحـرب العقيمـة التـي زجـت الحكومـة العثمانيـة نفسـها فيهـا؟

شـعر مفلـح بمـا في هـذه النظريـة مـن الحقيقـة ولكنـه قـال: أنتـم عـلى غـير اسـتعداد ولا طاقـة لكـم بالمعيشـة الخشـنة وليـس لكـم شيء مـن النفـوذ ولا عندكـم أمـوال.. والحكومـة في حالـة حـرب، فهـي عنـد أول حركـة تقومـون بهـا تبطـش بكـم بـلا شـفقة!.. فقالـوا: نحـن مسـتعدون للمـوت.

قال مفلح: ولكني لا أشـور بأي عمل عاقبته الخسـارة والفشـل المحققين.

***

غضب الشبان

ذهـب الشـبان غـير راضـين عـن مفلـح. وعـاد ابـن صاحـب البيـت بعدمـا ودعهـم وقـال لمفلـح: يقولـون إنـك بعـد الصدمـة التـي صدمتـك بهـا الحكومـة صرت تخـاف، وأن أفـكارك قديمـة وليـس عنـدك اسـتعداد للتضحيـة، ويقولـون يـا ليتنـا لم نسـتشره فقـد ثبـط عزيمتنـا.

قـال مفلـح: دعهـم يعـودون في الغـد إذ أكـون قـد فكـرت مليـا في الأمـر فنتحـدث فيـه مـرة أخـرى.

عودة الشبان

عـاد الشـبان ثـاني يـوم وهـم في منتهـى الحماسـة فقـال لهـم مفلـح: لقـد فكـرت في الأمـر كثـيرا ورأيـت أني كنـت مخطئـا وأنكـم عـلى صـواب، ولذلـك أنصحكـم بـالإسراع في العمـل. ولكـن قبـل أن تبـاشروا اسـتعدوا عـلى قليـل مـن المـال لتفهمـوا فكرتكـم لإخوانكـم الشـبان في المـدن المجـاورة وهـم يوصلونهـا لمجاوريهـم مـن إخوانهـم.

***

بث الفكرة

لا بـد أن يسـافر واحـد منكـم لصفـد وطبريـا وآخـر لجنـين وآخـر لحيفـا وعـكا وأن يـصرف هـؤلاء بضعـة أيـام في هـذه المـدن ليتعرفـوا بالشـبان المخلصـين ويبثـوا بينهـم الفكـرة وهـذا طبعـا يحتـاج إلى شيء مـن المـال، وهـب أن الحكومـة اشـتبهت بأحدكـم وأرادت أن تقبـض عليـه وفـر هاربـا.. أفـلا يجـب أن يكـون عندكـم شيء مـن المـال تعطـوه إيـاه ليسـتعين بـه عـلى قضـاء حاجتـه؟

قالـوا: إنك مصيب كل الإصابة.

- إذن بـاشروا جمع المال!

قالوا: بأي طريقة؟

- ألفوا جمعية سرية وافرضوا رسـم انتسـاب على من يدخل فيها.

قالـوا: نخـاف أن ينفضـح أمرنـا ولذلـك فنحـن نجمـع بعضنـا مـن بعـض ريثـما نفكـر في طريقـة. معـك حـق.. نحـن لا نسـتطيع أن نتحـرك بـلا مـال!

***

صندوق الجمعية

قـال أحدهـم أنـا عنـدي ماكنـة حلاقـة أقدمهـا لهـذا الغـرض الشريـف، وطرحهـا بالمـزاد فرسـا مزادهـا عـلى أحدهـم بخمسـة بشـالك، وصـار هـذا رأس مـال الجمعيـة الثوريـة ولم يـزدد سـوى بشـلكين ثلاثـة في نحـو سـتة شـهور لأن البـلاد كانـت في أزمـة اقتصاديـة والشـبان خافـوا أن يبوحـوا بأفكارهـم لئـلا يفتضـح أمرهـم. وهكـذا قـضي عـلى الفكـرة لأن شـبابنا كانـوا لا يزالـون في دور الـكلام.

الفصلُ الثَّامن

زار ذات يـوم الشـيخ رجـب مفلحـا وتحدثـا طويـلا في الشـؤون العربيـة وأخـيرا قـال مفلـح: ألا تـرى يـا سـيدي مـن المناسـب أن تفاتـح صبيـح بـك ليقـوم بحركـة خطـيرة مـن شـأنها أن تنقـذ مسـتقبل العـرب وتحرّرهـم.

الشـيخ: وما هي الحركة؟!

- الحكومـة تجهـز حملة الترعة، أليس كذلك؟

- نعم.

- بلغنـي أن هـذه الحملـة مؤلفـة مـن ثلاثـة فـرق ونصـف فرقـة جميعهـا مـن العـرب ومـن نحـو فرقـة مـن الأتـراك والألمـان.

- ربمـا كان الأمر كذلك.

- ألا يسـتطيع صبيـح بـك أن يتفـق مـع إخوانـه القـواد والضبـاط العـرب عـلى أن يحدقـوا بالأتـراك والألمـان في الصحـراء ويأخـذوا سـلاحهم دون أن يقتلـوا أحـدا منهـم ويفهموهـم أننـا لا نثـور عليهـم بـل نثـور مـن أجـل حريتنـا واسـتقلالنا اللذيـن أصبحـا في خطـر مـن اشـتراكنا الجنـوني في الحـرب إلى جانـب الألمـان.

- وهب أنهم تمكذنوا من الإحاطة بهم وأخذ سـلاحهم؟!

- حينئـذ نـرد الأتـراك سـالمين إلى جبـال طـوروس ونعلـن اسـتقلالنا ونطالـب الحلفـاء بالموافقـة عليـه مـن قبـل حكوماتهـم وبرلماناتهـم وهـم يضطـرون

للموافقة لأننا نريحهم من الحرب في جبهة الترعة فتتفرغ جنودهم للمحاربة في الجبهة الغربية والإنجليز والفرنساويين يريدون الخروج من هذه الحرب وسلتهم بلا تين.

- والله إنها فكرة معقولة سأعرضها على صبيح بك حالا.

***

مخاوف صبيح

بعد ثلاثة أيام عاد الشيخ وجيه فزار مفلح في مخبئه وقال: قابلت صبيح بك وعرضت الفكرة عليه وقلت أنها فكرتك ولكنني قلت هذا بعدما رأيت أنه استحسنها وقال: «هي فكرة عسكرية وسياسية معا ولكن أنى لنا أن نطبقها والثقة تعوزنا؟ أنا قائد الفرقة لست أمينا من ياورى وأظنه جاسوسا علي، ولا أطمئن لقواد الفرق الأخرى وكيف يطمئنون هم لضباط فرقهم؟

أخاف إذا بثثنا فيهم الفكرة أن تصل إلى جمال باشا قبلما تصل إلى من نعول عليهم من ضباط الفرقة وأن نحدث ارتيابا في نفوس الأتراك من موقف العرب فيوزعونهم على جبهات الحرب الخطرة ويضعونهم في مقدمات الصفوف، ولذلك أرى الأوفق ألا نخطو هذه الخطوة الخطرة وألا نضع أرجلنا في النار.

الغساني آسفا: إذا فهذا الباب مغلق ولا يمكننا أن نستفيد منه.

- نعم هو مغلق وإني أتأسف جدا لأننا كلما حاولنا أن نجرب أنفسنا نجد أننا غير مستعدين لشيء عملي وأننا لا نثق بعضنا ببعض.

- إني آسف جدا على ضياع هذه الفرصة. أنا أحب الدولة العثمانية وأنا من أشد أنصار التآخي بعد العرب والترك ولكنني صرت أخشى على الدولة العثمانية وأخشى أن يضيع العرب بسببها.

أعتقد أن عقلاء الأتراك يعذروننا إذا أعلنا استقلالنا وسعينا لتأمينه ما داموا يعتبرون أنهم غير قادرين على المحافظة على سلامة الولايات المتحدة.

أنا أعلم أن الأتراك لا يسلمون بانفصالنا عنهم ولكن إذا لم يكن من الانفصال بد فهم يفضلون أن ننفصل ونكون مستقلين على أن نقع في مخالب الاستعمار.

ما كاد الشيخ العاقل المحترم يفرغ من حديثه هذا حتى انتفض وقام ومد يده ليصافح مفلح دون أن يقول كلمته.

شعر مفلح بما يجول في نفس محدثه فمد يده وصافحه وأحنى رأسه احتراما ومشى وراءه مشيعا إلى الباب.

مفلح يتألم

رجع مفلح إلى غرفته وخلا بنفسه وأخذ يفكر في مستقبل العرب متألما.

ثم جعل يناجي نفسه قائلا أن العرب يشتغلون دائما بالمظاهر ولا يفكرون مطلقا بتنظيم أنفسهم تنظيما اجتماعيا ليستفيدوا من الفرص. هه فرصة الحملة على الترعة قد مرت ولم نحسن الاستفادة منها لأن صفوفنا غير منظمة ولأننا لا نثق بعضنا ببعض ولأن فكرة الاشتغال بالمسائل العمومية تنقصنا، وإذا اشتغل أحد فيها فإنما يتخذها وسيلة للظهور أو للمنفعة.

***

الزواج باثنتين

طرق الباب فقال الغساني ادخل، دخل ابن صاحب البيت وقال: أنا شعرت أنك متألم من نتيجة حديثك مع الكيلاني رجل العرب الكبير على الرغم أني لا أعلم شيئا منه ولكنني قدرت أنكما حاولتما القيام بخدمة فلم تفلحا فذهب الشيخ منقبضا. وانزويتم أنتم في غرفتكم. ولما كنت قد سمعت حكاية مضحكة محزنة أتيت أقصها عليكم للتسلية.

يوجد شخص مسيحي متزوج وله أولاد وأحب فتاة ووعدها بالزواج منها ولما نال إربه تركها فاشتكت عليه لرمزي بك قومندان المركز فجاء به فنصحه أن يتزوج منها فأبى فشدد عليه فتسلح بأن الديانة

النصرانيـة تمنـع الـزواج باثنتـين فأجابـه القومنـدان: ولكننـي أعلـم أيضـا أن الديانـة المسـيحية الشريفـة تحـرم الزنـا وتحـرم الاحتيـال فأنـت كذبـت عـلى الفتـاة وخدعتهـا فالـزواج بهـا أخـف ضررا مـن تركهـا تشـقى وتحمـل العـار. ولمـا رفـض الشـاب ألقـاه عـلى الأرض وبقـي يجلـده حتـى رضي بالـزواج.

فبهـت مفلـح وقـال: ألم يكـن عمـل هـذا القومنـدان إنسـانيا؟ ألا يـرضي المسـيح؟ إني أشـكر هـذا القومنـدان عـلى رغـم قسـوته أنـه اسـتحقها زوج الاثنتـين. وأعتـبر هـذا العمـل جـرأة أدبيـة.

الفصلُ التَّاسع

زيارة صديق

زار مفلح يوما أحد أصدقائه المخلصين من حيفا فدعا المرحوم بولص قعوار ذلك الصديق ليتعشى عنده مع مفلح.

اتفق أن قابل الصديق فخري بك البارودي وكان قد تعين ضابطا في فرقة الناصرة.

سأل فخري بك الصديق قائلا: سمعت أن مفلح مختبئ هنا، ألا يمكن أن نزوره ونراه؟

أجاب الصديق: لعلي أستطيع أن أجمعك به.

طلب الصديق من السيد بولص قعوار أن يدعو فخري بك إلى العشاء ففعل.

***

فخري بك ومفلح

بعد الغروب جاء مفلح متنكرا بزي فلاح - وكان قد أطلق لحيته - إلى بيت صاحب الدعوة. وجاء الصديق أيضا وبعد برهة جاء فخري بك فأوعز مفلح للحاضرين أن يقولوا أنه أحد شركاء السيد قعوار في زراعته بالناعورة .

دخـل فخـري وصافـح الحاضريـن فعرفـوه عـلى مـن لم يكـن يعرفـه، ولما جـاء الـدور إلى مفلـح في الآخـر طبعـا لأنـه كان يلبـس الكوفيـة والعقـال والعبـاءة، قالـوا لـه الشـيخ مفلـح مـن شركاء بولـص أفنـدي.

***

البدلة العسكرية

جلـس فخـري بـك يحـدث وكان يومئـذ للبذلـة العسـكرية هيبـة وخصوصـا إذا كان لابسـها مـن شـبان العـرب المخلصـين لقومهـم ووطنهـم كفخـري بـك. فأصغـى إليـه الجميـع وكانـوا يؤمنـون عـلى مـا كان يقولـه إلا مفلـح فقـد بقـي مصغيـا إلى أن توقـف فخـري بـك عـن الـكلام فقـال لـه مفلـح بلهجـة بـدوي مسـتفلح: الحـكي مليـح والبـلاد تعبانـة كثـير كثـير اللـه يهونهـا عـلى العـرب.

فالتفـت فخـري إلى مفلح وقال: من أين أنت يا عم مفلح؟

- أصلي بدوي واسـتفلحت وصرت شريك لهالخيّر.

فخري: حياك الله، مبسـوطين أنتم من الدولة.

مفلـح: مـا يكفـي يـا أفنـدي الـلي تاخذونـه مـن الفلاحـين وليـه تريـد أن تأخـذ مـن فمـي كلمـة؟ شـو بينـي وبينـك؟ تريـد ترمينـي بغضـب الدولـة!

فخـري: لا تنغـش بهالثـوب. هالصـدر فيـه قلـب طيـب يغـار عـلى الفلاحـين وعـلى كل العـرب.

مفلح نفض ثوبه وقال: الله ما بيني وبينك. إن شاء الله تكون زين، تحدث يا خوي بالي تعرفه ومالك ومالنا نحن الفلاحين خلنا بهمنا وأحوالنا.

***

التعارف

ضحك عند هذا الجواب الصديق مخلص وضحك معه بعض من عرفوا مفلحا فالتفت فخري بك مستفهما، فقال له الصديق: هذا هو الرجل الذي تطلب معرفته. فابتهج فخري بك وتقدّم فورا من مفلح وصافحه بحرارة وشوق وانحنى كأنه يريد أن يقبّل يده، فانحنى مفلح عليه وقبله وأعرب عن سروره برؤياه وامتنانه من الأقدار التي أتت به ضابطا إلى الناصرة.

ثم دخلوا غرفة الطعام وهناك تحدّثوا مليا وبتحفظ قليل عن الموقف وعن مبلغ تفكّك عرى العرب الذي حرمهم من الاستفادة من الموقف وجعلهم آلة صماء بيد الأتراك، كما أن الأتراك كانوا آلة صماء بيد الألمان الذين يسوقون الحملة على الترعة لا لغرض سوى إشغال بال الإنجليز وجعلهم يرصدون الجنود لحمايتها ثم تهيئة حملة لغزو سوريا بدلا من إرسال كل العساكر إلى الجبهة الغربية.

الفصلُ العاشر

أبو فارس

نصح بعض الأصدقاء مفلحا بأن يغير محل إقامته فاستأجر غرفة في نفس الحي وأقام فيها، وكانت الغرفة في إحدى الجنائن القريبة من المستشفى النمساوي بالناصرة، وكان إلى جانب المستشفى أقبية فيها الجبخانة[1]، وقد أقيم على حراستها جاويش من «أبضيات» حلب الأشداء ومن أصحاب النخوة والإباء اسمه أبو فارس ومع بضعة أنفار.

***

سرقة اللوز - الرابطة العربية

اشتكى ذات يوم طبيب المستشفى إلى قومندان الفرقة من الجنود الذين يحرسون الجبخانة أنهم يسرقون لوزه وهو من أتباع الدولة الحليفة، فدعا القومندان أبا فارس ووبخه توبيخا مرا، فعظم الأمر على أبي فارس وخطر له أن يبطش بالقومندان ولكن عاد فملك عواطفه وصبر على الإهانة.

وفي المساء أقام أبو فارس نفرين من جنوده على حراسة الجبخانة ووزع الآخرين في نواحي بستان اللوز.

عند منتصف الليل أحس أحد الجنود بحركة بين الشجر القريب منه فأسند بارودته إلى كتفه وصاح بالشبح الذي رآه على الشجرة قائلا:

١ كلمة تركيَّة معناها مستودع أسلحة.

أرضك أو تموت - فوقف الرجل بلا حراك فركض أبو فارس على الصوت وإذا به يرى على شجرة رجلا يدعى أبو شرعة، شغله جلب الخضار على حماره من القرى ليبيعها في الناصرة، فتناوله بيده وألقاه على الأرضوأخذ يجلده فصاح الرجل: أعف عني فأدلك على ما يغنيك.

***

الدلالة على مفلح

توقّف أبو فارس عن ضرب الرجل وأمر جنوده فحملوه إلى الجبخانة وقيدوه.

انصرف الجنود لينامو ما عدا صاحب الدور في الحراسة الذي أمره أبو فارس أن يبتعد قليلا ثم سأل الرجل عمن يدله عليه فقال أبو شرعة: يوجد في غرفة قريبة منا رجل سياسي فار من وجه جمال باشا وفي الصباح أدلك على الغرفة التي يسكنها فتأخذ منه لا أقل من خمسماية جنيه.

***

أبـو فارس يفاجئ مفلح

في الصبـاح قـرع بـاب غرفـة مفلـح وكان لا يـزال نائمـا فهـب مـن فراشـه مذعـورا ولكنـه تمالـك نفسـه وقـال بهـدوء: مـن الطـارق؟ فقـال أبـو فـارس بلهجـة عسـكرية ولكنهـا لطيفـة: افتـح!

تنـاول مفلـح عباءتـه ووضعهـا عـلى كتفيـه وفتـح البـاب وإذا بجنـدي كالمـارد يسـد البـاب. أخفـى الغسـاني مـا ألم بـه ورد السـلام عـلى الجنـدي وقـال: تفضـل ادخـل.

أبـو فـارس: أتحب أن تزورني؟ أنا جاويش الجبخانة.

خطـر لمفلـح أن يعـرف موقـف الزائـر الجديـد منـه فقـال: ألا تـشرب فنجـان قهوة؟

أبو فارس: اشرب.

مفلـح: تفضل وتناول معي طعام الفطور.

أبـو فـارس أدرك المغـزى وفهـم أن مفلحـا يسـتدرجه ليـأكل مـن خبـزه وملحـه. فقـال: وأفطـر معـك. ومـن ثـم تـزورني مطمئنـا.

أفكـر الاثنـان معـا وشـعر مفلـح بأنـه توفّـق إلى معرفـة نصـير جديـد مـن قومـه فقـد تنفعـه صداقتـه كثـيرا.

سرقة حمار أبو شرعة

أرسل أبو فارس جنديا سرق حمار أبو شرعة ووضعه في كمين فجاء أبو شرعة ودخل على أبو فارس ليساعده في التفتيش عن حماره لأنه جاره وقصيره .

قال أبو فارس: نفتش لك عليه ولو لم يكن لك علينا حقوق الجار والقصير لنك أوقعتنا بتهمة خيانة الجار إذ سرقت لوز النمساوي - نفتش لك عليه على شرط أن تغادر الناصرة وقضاها إذا وجدناه ورددناه إليك.. فوعد. ولما استرد أبو شرعة حماره غادر الناصرة وانقطعت أخباره وأراد أبو فارس بهذا العمل أن ينجي مفلحا من خطر وشايات أبو شرعة.

صار أبو فارس يدعو مفلحا دائما لعنده وكلما صار تفتيش في ذلك الحي كان مفلح يذهب إلى الجبخانة ويتوارى فيها إلى أن تهدأ الزوبعة.

الفصلُ الحادي عشر

القبض على شبّان

ركب ذات يوم بعض الشبان عربة إلى حيفا وكان معهم الابن الكبير لصديق مفلح الذي فتح له بيته، ورافق الشبان جاسوس كان يتظاهر بحب العروبة والإخلاص لها، فأخذ الشبان في الطريق ينشدون أناشيد عربية ويتحدثون عن شؤون قومية، والجاسوس يشاركهم في الحديث. ولما عادوا وشى بهم فقبض عليهم وكان قد انتقل صبيح بك من رياسة الفرقة وخلفه محيي الدين بك فقلق بال مفلح عليهم كثيرا وخصوصا على نجل صديقه، وأراد أن يستعلم عن حالهم ويقف على ظروفهم ليرى إذا كان يوجد وسيلة لمساعدتهم وإنقاذهم أو على الأقل للتخفيف عنهم.

***

أبو العشرة آلاف

خطر لمفلح أن يعهد إلى الشاب الذي كان يحدثه بجرأة عن وجوب القيام بثورة ويقول له هب أنه مات عشرة آلاف من العرب في الثورة أفلا يموت أضعاف هذا العدد في الحرب العقيمة؟!

وقال في نفسه إن هذا شاب جريء ومفكر ومستعد للتضحية ولا يمكن أن أجد خيرا منه للقيام بهذه المهمة. فبعث مفلح من يناديه فجاء فقال له مفلح: أنت تعلم أنه قبض على أخوانك ومن الضروري أن

نعـرف سـبب القبـض عليهـم وكيـف يعامَلـون ومـن يحقـق معهـم. وهـل في النيـة إرسـالهم إلى الديـوان العـرفي؟ وهـل يُسـمح لأحـد بمقابلتهـم؟ وأنـا أعتقـد أنـك خـير مـن يقـوم بهـذه المهمـة ولا أشـك في أنـك تغتنـم الفرصـة لتبرهـن عـلى اسـتعدادك للتضحيـة في سـبيل وطنـك وإخوانـك.

فأجـاب الشـاب: أنـا متأسـف جـدا لأني لا أسـتطيع القيـام بهـذه الخدمـة. أبي أوصـاني بعـد القبـض عـلى رفاقـي أن لا أمـر مـن جهـة مركـز قومنـدان الفرقـة مخافـة أن تقـوم حـولي الشـبهات.

قـال مفلـح: يجـب ألا تظهـر جبنـا بـل اذهـب واطلـب مقابلـة رفاقـك وقـل إنـك تريـد أن تسـأل عـن أحوالهـم وعـما إذا كانـوا يريـدون حاجـة.

فأجاب: لا أتجاسر!

- إن الجرأة كثيرا ما تنفي الشـكوك.

فقال الشـاب: مالي ولهذه التجربة.

- إذن تنسـم الأخبـار مـن بعيـد فإنـك تجـد مـن يعطفـون عـلى هـؤلاء الشـبان. ألا تشـعر أن كثيريـن مـن العـرب يتحسسـون بنفـس الحـس الـذي تتحسـس بـه أنـت مـن جهتهـم ولا بـد لـك مـن سـماع النـاس يعطفـون عليهـم ويسـتقصون أخبارهـم.

- لا أريـد أن ألعب بالنار.

- لا تخـف فالبـلاد مشـبعة بالـروح العربيـة والسـؤال عـن إخوانـك ليـس فيـه خطـر. تذكـر مـا حدثتنـي بـه عـن الثـورة.

- لا أسـتطيع مخالفة وصية أبي.

فشـكره مفلح على تمسّـكه بنصيحة أبيه ولم يشأ أن يقرعه.

***

فخري بك

وأخـيرا توسّـط فخـري بـك البـارودي الـذي تعـيّن خلفـا لمحيـي الديـن بـك – لديـه بأبيـات مـن شـعره الرقيـق اسـتعطفه فيهـا عـلى الشـبان ففهـم منـه أنـه يريـد أن يشـدد عليهـم ليحذرهـم مـن البطـش والتهـوّر لئـلا يوقعـوا أنفسـهم في مشـاكل في المسـتقبل قـد لا يخلصـون منهـا، وأنـه لا ينـوي تسـليمهم إلى الديـوان العـرفي وسـيطلق سراحهـم بعـد أيـام فاطمأنـت الخواطـر عليهـم وكان هـذا الحـادث محـكا لحماسـة مـن كانـوا عـلى شـاكلة ذلـك الشـاب مـن الشـبان الذيـن إنمـا تنجـلي حماسـتهم كـما يقـول أهـل طبريـا «في الوسـاع» وتختفـي في الضيـق.

الفصلُ الثَّاني عشر

الحملة على التّرعة

سارت الحملة على الترعة بعد تجهيزات واستعدادات وقد عانى الجنود فيها مشاق كبيرة من العطش والتعب، وتوقفت الطلائع على ما وردتنا الأخبار يومئذ لاجتياز الترعة ولكن الإنجليز أحسوا بها وأمطروها بقنابل طياراتهم وكرات مدافعهم واضطروها إلى الرجوع على أعقابها بحالة يرثى لها لأنه لم يكن وراءها قوة وخنادق ومدد غزير ومؤن.

وقد كان الضباط الألمان الذين أشاروا بهذه الحملة يعرفون هذا المصير الذي سبق فأنبأهم به صبيح بك نشأت، كما كان ضباط العرب يعرفونه أيضا ولكنهم لم يكونوا بجرأة على المجاهرة بآرائهم. فقيل عن الحملة يومئذ أنها حملة استكشاف ولكنها كنت في الحقيقة حملة افتضاح، فقد عرف الإنجليز بسببها شيئا كثيرا عن حالة الجيش والعرب وأخذوا يتهيّأون للزحف على سورية.

***

السياسة الجديدة

تبدّلت الحالة بعد الحملة، فالعرب شعروا أنهم يُسخّرون وتُنفق أموالهم وتثزهق أرواحهم خدمة للسياسة الألمانية، وغلب اليأس على الرجاء في نفوس كثيرين ممن كانوا لا يزالون متفائلين منهم، وأيقنوا

بـأن تركيـا تُسـاق سـوق الذبيحـة إلى محرقـة السياسـة الألمانيـة وأنهـا تحـارب يائسـة وتجـازف بـكل مـا عندهـا.

وبالمقابلـة شـعر جـمال باشـا الكبـير وبعـض الضبـاط الأتـراك بفشـلهم ولاحظـوا مـن اشـمئزاز العـرب مـا أوجـب نفورهـم، ولكـن تيقنـت فئـة يرأسـها جـمال باشـا الصغـير مقيمـة عـلى ولاء العـرب.

أراد جـمال الكبـير أن يغطـي فشـله مـن جهةويخفـي مخاوفـه مـن أخـرى فصمـم عـلى البطـش والإرهـاب وأمـر بإنهـاء محاكمـة اللامركزيـين ومعهـم رئيـس المنتـدى الأدبي عبـد الكريـم الخليـل وبعـض أعضائـه فحكـم عليهـم بالإعـدام ونفّـذ الحكـم فيهـم في بـيروت فأظهـروا كلهـم رباطـة جـأش عظيمـة، ولكـن البـلاد اهتـزت مـن أقصاهـا إلى أقصاهـا لهـذا الحكـم الجائـر الغاشـم الـذي قـضى عـلى كل بقيـة ثقـة العـرب بالأتـراك.

أمـا جـمال فصمـم بعـد ذلـك عـلى الجـري عـلى السياسـة الألمانيـة وعـلى تنفيذهـا بحذافيرهـا.

الفصلُ الثَّالث عشر

القبض على شبّان

السِّياسة الألمانيَّة

لما تعيّن الجنرال ليمان فون سندرس مدربا للجيش العثماني بعد إعلان الدستور وضع للأتراك خطة كان لها تأثيرها في الأندية السياسية.

فقد جاهر بأن العنصر التركي يجب أن يكون أقوى العناصر في تركيا ويجب أن يسودها، ورسم الخطط لتطبيق هذه السياسة فصار الأتراك يضطهدون الأرمن ويضيقون على اليونان وأبيحت مهاجرة النصارى من تركيا للذين كانوا لا يزالون تحت الأسنان العسكرية بعد أن كانت ممنوعة.

ولم ير مفلح وكثيرون من إخوانه العرب المعتدلين بأسا باتباع هذه السياسة فيما بتعلق بالعناصر اليونانية والبلغارية والأرمنية لأنها كلها كانت تنزع إلى الانفصال عن جسم الدولة العثمانية، ولكنهم خافوا منها على العرب لأنهم كانوا يعتقدون أن حياة الدولة وقوتها قائمة على اتحاد العنصرين العربي والتركي واعتراف كل عنصر لشقيه بحقوقه الطبيعية.

الخطابان المتعارضان

لم يكن جمال بادئ بدء مناصرا لهذه الفكرة بدليل أنه في إحدى الحفلات التي أفيمت لتكريمه في دمشق كما تقام الحفلات اليوم لتكريم المسيو في سورية والمستر في فلسطين. قام الأمير شكيب أبلغ الناس حجة في الدفاع عن حقوق العرب اليوم - قد كان حينئذ ينتسب إلى أنور باشا ويؤيد سياسته على طول الخط.

وخطب بما معناه أنه يوجد فريق من العرب عدو للدولة ويضمر لها السوء ويكيد لها ويحب الاقتصاص منهم بمنتهى الشدى والصرامة.

فعارضه الشيخ الشقيري أحد المقرّبين من جمال بقوله ما مؤداه: العرب كلهم مخلصون للدولة وما من أحد يضمر لها السوء ولكنهم بالنظر إلى الحكومة منقسمون إلى فئتين فئة حاصلة على رضا حكومة الاتحاديين التي تغدق عليها النعم وتقلدها الوظائف، وفئة ناقمة على هذه الحكومة لأنها تقصيها عن الوظائف ولا تعتد بآرائها.

فقام جمال باشا وقال إن هذا الخطيب تكلم بلساني وعبّر عن شعوري. ولعل كثيرين من رجالات العرب الذين حضروا تلك الحفلة لا يزالون يذكرون ما جرى فيها ونحن لولا الرغبة في خدمة التاريخ لما ذكرنا هذه الحقيقة الجارحة.

تغير جمال

ولكـن جـمالا تغـيّر مـن بعـد فشـله في الحملـة عـلى الترعـة وصـار يوافـق عـلى فكـرة أنـور باشـا المسـتمدة مـن الألمـان والقائلـة بوجـوب إضعـاف سـائر العنـاصر العثمانيـة ليسـودها العنـصر الـتركي وكـثرت ظنونـه بالنـاس، ولا عجـب.. فالـذي يفشـل ويغلـب يصـير كثـير الظنـون ويتصـور النـاس خصومـا وأعـداء وخصوصـا إذا كان قـد أسـاء إليهـم.

***

الوشايات الكثيرة

هـذا فضـلا عـن أن النـاس كانـوا يمطرونـه سـيولا مـن الإخباريـات الفسـادية بعضهـم عـلى بعـض حتـى قيـل إن بعـض الأخـوة كانـوا يحاولـون التقـرّب منـه والتزلّـف إليـه بالوشـاية بإخوانهـم، ويـروى أنـه قـال لبعـض المقرّبـين: لـو عملـت بمـا ورد إلي مـن الوشـايات والشـكايات لمـا بقـي بيـت في سـورية «بمعناهـا الكبـير» بـلا نكبـة.

صـار جـمال يفكـر في تطبيـق سياسـة إضعـاف العـرب ورغـب في نقـل فريـق منهـم إلى الأناضـول ليسـتبدلهم بالأرمـن وبـدأ بالوجهـاء.

وكان يحسـب أنـه بهـذه الواسـطة يضعـف القوميـة العربيـة والأرمنيـة بوقـت واحـد فجعـل النـاس عيونـا وأرصـادا بعضهـم عـلى بعـض ، وصـار يكـثر مـن القبـض عـلى النـاس وسـوقهم إلى الديـوان العـرفي وينفيهـم إلى آخـر مـا هنالـك مـن الفواجـع التـي يـم ينـس الشـعب لوعتهـا بعـد عـلى

رغـم مـا يعـاني مـن السياسـة الصهيونيـة والاسـتعمارية اللتـين تتعاونـان عـلى إفقـار العـرب وإخراجهـم مـن فلسـطين، ومـن السياسـة الاسـتعمارية في سـوريا التـي اسـتنزفت أمـوال النـاس وأفقـرت البـلاد وصـيّرت حالهـا فـوضى وطبقـت السياسـة الأمانيـة بنقـل الأرمـن إلى سـوريا ولبنـان لإضعـاف القوميـة العربيـة.

الفصلُ الرَّابع عشر
جمال يستدعي الشّيخ وجيه

ذات يوم ذهب قائد فرقة الناصرة لزيارة الشيخ وجيه زيد شيخ إسلام الفلبين في داره وأخبره أن القائد الأكبر جمال باشا يرجو منه أن يقابله في القدس لأمر هام.

ظن الشيخ وجيه أن الباشا بعث في طلبه ليأخذ رأيه في السياسة التي يتمشى عليها في البلاد العربية فأخذ يفكر فيما يسديه من النصيحة وخطر له أن هذه فرصة لإسداء خدمة لمفلح الغساني وتخليصه مما هو فيه.

أرسل الشيخ يطلب أحد الذين يأتمنهم على أسراره ليقابله، وكان هذا صديقا حميما لمفلح، فلما جاءه قال له اذهب وأخبر مفلحا أن جمالا استدعاني إليه وسأغتنم الفرصة لأحدثه بشأن مفلح ولا أشك في أني سأنجح في إزالة كل ما هو عالق في رأس جمال بخصوصه.

أسرع صديق مفلح لزيارته في مخبئه وحمل هذه البشرى إليه ولما وقع نظره عليه ابتسم وقال: جئتك مبشرا. أما مفلح فكان إذا جاءته بشرى مفرحة يحسب حساب المكدرات فلا يندفع مع عواطفه، فقال لصديقه: بشّر!.. فقص الصديق عليه حديث الشيخ فشكر مفلح الشيخ والصديق وقال:

-التمس من جنابه عني بعد شكره أن لا يخرج في حديثه مع القائد

عـن العموميـات وإذا اسـتطاع أن يحمـل الباشـا عـلى تغيـير سياسـته ينالنـي نصيبـي مـن الفائـدة كأحـد أفـراد الشـعب.

ولمـا نقـل الصديـق هـذا الجـواب إلى الشـيخ قـال لـه الشـيخ: أنـا لم أبعـث بـك إليـه لتستشـيره بـل لتبـشره.

***

مهمة الشيخ وجيه

عـاد الشـيخ وجيـه مـن بيـت المقـدس فخـف النـاس للسـلام عليـه واسـتطلاع أخباره.

ولمـا خـلا بصديقـه وصديـق مفلـح أخـبره أن جـمالا اسـتدعاه ليبلغـه قـرار حكومـة الأسـتانة بإرسـاله إلى أمريـكا يدعـو الأمريكيـين إلى عـدم دخـول الحـرب إلى جانـب الحلفـاء، وأن دارعـة أمريكيـة آتيـة مـن بـيروت بعـد يومـين ثلاثـة.

***

حديث الشـيخ مع الجمالين

وقـص الشـيخ وجيـه عـلى الصديـق مـا دار بينـه وبـين الجمالـين مـن الحديـث ومـؤداه:

أن جـمالا سـأل رأي الشـيخ في سياسـته وطلـب منـه أن يكـون صريحـا وأن لا يكتـم عنـه شـيئا مـما يعتقـد.

فأجابه أنه يحبذ كل ما يبديه القائد من الحزم ولكنه يفضل التخفيف من الشدة إلا في ظروف مخصوصة.

ثم دار البحث حول معاملة النصارى فانتهز الشيخ الفرصة وقال للقائد أن هذه الحرب هيّأت فرصة للحكومة العثمانية لتبرهن لرعايا النصارى عن حسن نياتها ومعاملاتها وأنهم يستطيعون أن يعيشوا بظلها آمنين، وأن الدول الأجنبية إنما كانت تتخذهم مطايا للمداخلة وتوقع النفور بينهم وبين حكومتهم.

فسأل القائد الشيخ رأيه في إخلاص النصارى. فقال أن النصارى كالمسلمين كثيرون منهم مستاؤون من معاملة المأمورين والدرك لأمن الدولة.

فسأل الباشا عما إذا كان النصارى لا يشتغلون بالجاسوسية للأعداء. فقال الشيخ: إن الأعداء أعقل من أن يستخدموا النصارى في مهمة الجاسوسية وهم يعلمون أنهم لا يستطيعون أن قفوا على شيء هام من أسرار السياسة والجيش وأن الشكوك تحوم حولهم فضلا عن أن النصارى يتحاشون أنفسهم في هذه الظروف الخطرة كل ما يسبب غضب الحكومة أو يثير شكوكها.

نصيحة الوجيه الوجيهة

وزد على ذلك، فدولتكم إذا أحسنتم معاملة النصارى ترفعون قدر المسلمين والقرآن في نظرهم وفي نظر الدول النصرانية الصديقة والعدوة التي يمكن أن تنقلب صديقة فيما بعد، وأنا كرجل عرف شيئا من نفسية الأمريكان وعقليتهم وهم عبارة عن مجموهة من الشعوب الأوروبية، أعتقد أن هذا خير فرصة لتثبت للعالم الأوروبي والأمريكي أن للإسلام مدنية مطابقة لأشرف وأسمى مبادئ إنسانية، وأرجو أن يكون في وسعي أن أقول للأمريكان أننا نعامل النصارى من رعايا الدولة في الحرب معاملة أفضل من معاملتنا للمسلمين، وأن لا يكون هناك دعايات مخالفة فتعرقل أعمالي.

قال الشيخ وطال الحديث بهذا الصدد أكثر مما كنت أتوقع ولم أشعر أن حديثي كان ثقيلا على القائد.

ولما كان دولته على موعد مع القائد الألماني قال لي إنني أشكرك من أجل هذه المطالعة الطيبة التي سأعمل بها بقدر ما أستطيع واعتذر بفوات الميعاد فلم أتمكن من التحدث معه عن مفلح.

الفصلُ الخامس عشر
مع جمال الصَّغير عن الغسَّاني

قال الشيخ: انصرفت من عند القائد وكان جمال باشا الصغير ينتظرني في الأوتيل، فلما رجعت حدثته بما كان فسُر جدا من حديثي وقال لو حدثه غيرك بمثل هذه لساقه إلى الديوان العرفي.

واستطرد الشيخ وقال: قلت لجمال الصغير بقي شيء لم أحدث القائد به.

قال جمال: وما هو؟

- لم أحدثه بشأن مفلح.

- مفلح الغساني؟

- وهل تعرف عنه شيئا؟

- إن مفلحا من الرجال المخلصين لقومهم وللدولة وأريد أن أحدث القائد الأكبر عنه وأبرهن له عن إخلاصه ليكف عن مطاردته.

- قلت لك إن خصومه دواهٍ. وهم قنصل ألمانيا واثنان آخران لا يقلان عنه نفوذا عند جمال باشا. هم مختلفون فيما بينهم ويتزاحمون على النقوذ عند الباشا ولكنهم متفقون على العمل لإيغار صدر القائد على فملح وأظن دماغ الباشا صار مشبعا بالكراهية له فأخشى إذا تحدثت معه أن تضع نفسك في مأزق إذ لا يبعد أن يقول لك أين

هـو؟ أنـت عـرف مخبـأه فسـلمه إلي.. فتضطـر أمـا إلى أن تـدل عليـه أو إلى تحمـل غضـب القائـد.

- إني أسـتغرب مـن رجـال الجيـش والحكومـة إصغاءهـم للوشـايات ووضعهـم سـلطتهم تحـت إمـرة أصحـاب الأغـراض فيسـتخدمونها للانتقـام مـن المخلصـين فتسـوء بذلـك سـمعة الحكومـة ورجالهـا. لمـاذا لا تحققـوا مـا يتصـل بالوشـايات كأن تراجعـوا صلـة المـوشى بهـم بالوشـاة وتختـاروا مخبريـن أوادم؟

ألم يقولـوا لنـا إن المقتبـس (تيـس العـرب) وإن صاحبـه الأسـتاذ كـرد عـلي مـن خـيرة الرجـال وأخلصهـم، وهـا نحـن قـد رفعنـا اسـمه مـن القائمـة السـوداء وأبقينـا لـه رأسـه وأغدقنـا عليـه العطايـا وقويناه ليوسـع انتشـار جريدتـه، ومـع ذلـك فهـو لا يـزال يعـرج.

- أنـا أكلمـك يـا باشـا عمـن أعرفـه وأتأكـد إخلاصـه وأعتقـد أنكـم بمطاردتـه تسـيئون إلى العـدل وإلى وجداناتكـم الحيـاة. إن كنـت تحـب مفلحـا وكنـت أمينـا مـن إخلاصـه فـلا تحـدث القائـد الأكـبر عنـه. أبـقِ أمـره لي وأنـا إذا لاحـت لي فرصـة أسـعى لخلاصـه.

مفلح وصديقه

خـف صديـق مفلـح إليـه وروى لـه حديـث الشـيخ وجيـه فابتسـم مفلـح قليـلا وقـال: للـه مـا أشـد غـيرة الشـيخ وجيـه وأطيـب قلبـه.

- الحمـد للـه عـلى عـدم سـنوح الفرصـة لـه ليتكلـم مـع الباشـا عنـه لأني كنـت أخـشى أن يحـرج الباشـا مركـزه بالتشـديد عـلي.

غـير أني أعتقـد أن حديثـه العمومـي مـع الباشـا سـيؤثر عليـه ولـو إلى حـين، هـذا إذا لم يخنـق هـذه البـذرة الطيبـة التـي بذرهـا الشـيخ والمحيطـون بالباشـا الذيـن يتقربـون منـه بتضحيـة أوطانهـم وأقوامهـم وذممهـم وأخلاقهـم.

***

مفلح والكرد علي

صمـت مفلـح قليـلا وأسـند رأسـه بإحـدى يديـه وانـصرف بفكـره إلى ناحيـة أخـرى فسـأله صديقـه بـم تفكـر؟

- أفكـر في أمر ذي بال.

- وماذا عسـاه أن يكون.

- أفكـر في حديـث جـمال باشـا الصغـير عـن كـرد عـلي، فقـد صرت أخـشى عـلى هـذا الرجـل لأن موقفـه حـرج جـدا.

- مما تخاف عليه؟

- تذكرت حديثا عن كرد علي جرى لي مع قنصل ألمانيا قبل أن أتوارى. قال لي القنصل في سياق الحديث إننا اتفقنا مع جمال باشا على أن نبقي على كرد علي لنستفيد منه فإذا لم ينفعنا بجريدته عدنا وعاملناه بما يستحق كرفاقه.

- وماذا في وسعك أن تفعل؟

- من لي بالسيد عبد الله مخلص فهو صديق حميم لي ولكرد علي، وإذا أبلغته هذا الحديث ينقله إلى كرد علي فيتدبر أمره.

- أنا أدعوه إلى الناصرة ومتى جاء آتي وإياه إليك فتسر إليه بما تريد.

***

القضاء العسكري الكيفي العادل

ضجت الناصرة ذات يوم بحكم حكم به قومندان الموقع رمزي بك.

جاءت إليه امرأة تشكو قريبا تظاهر بحبها ووعدها بأن يتزوج بها ولما أركنت إليه وعاشرته مدة هجرها وأخلف وعده.

استدعاه رمزي بك وسأله فاعترف بأنه أحب الفتاة ولكنه قال إنه عاشرها كخليلة. فقال رمزي بك يجب أن تتزوجها لأنها ناقل منك.

أجـاب الرجـل: أنـا متـزوج بغيرهـا وأنـا مسـيحي ولا يجـوز في شرعنـا أن نتـزوج بامرأتـين.

رمـزي بـك: ولكـن الشريعـة المسـيحية تنهـى عـن الزنـا فـإن كنـت قـد خالفـت الشريعـة مـن أجـل شـهوتك الحيوانيـة فـأولى بـك أن تخالفهـا بعمـل شريـف.

الرجل: لا أستطيع.

القومنـدان: ابطحـوه واجلـدوه إلى أن يـرضى ويتـزوج بالمـرأة التـي اعتـدى عـل شرفهـا.

كان الزبانيـة حاضريـن فيـما لفـظ رمـزي بـك كلمتـه حتـى ألقـي الرجـل عـلى الأرض ولفـد سـير البـارودة عـلى رجليـه وصـار السـوطان واحـد طالعـا والآخـر نـازلا والرجـل يسـتجير ولا مـن مجـير إلى أن قـال أخـيرا «رضيـت.. رضيـت دخـل اللـه».

قـال رمـزي بـك: تزوجـت بالمـرأة الأولى عـلى شريعـة المسـيح وهـذه تـزوج بهـا عـلى شريعـة المـروءة والإنسـانية، وأنـا عـلى ثقـة مـن أن اللـه يغفـر لـك هـذه الخطيئـة لأن العمـل إنسـاني وفيـه تكفـير عـن رذيلـة.

إنذار علي كرد

جاء السيد مخلص ومعه السيد رشيد الحاج إبراهيم إلى الناصرة - وكان السيد رشيد فتى يتلقى دروس الوطنية على السيد مخلص - وزارا مفلحا في دار عزلته. فحدثهما مفلح بما سمع من الشيخ وجيه وبحديث قنصل ألمانيا معه عن كرد علي وقال لهما: إني أخاف على حياة هذا الرجل وخصوصا لأن البلاد بحاجة إلى دماغه الكبير. فمن الواجب إنذاره ونصيحته بوجوب مجاراة الحكومة لأن كتاباته معها أو عليها لا تؤثر في تغيير الموقف ما ذامت البلاد في حلة من الحديد وعلى أتون من نار.

قال السيد مخلص: إن ذهابي عفوا إلى دمشق يثير شكوك قنصل ألمانيا الذي كما تعلم يضمر لي السوء، ولعل جواسيسه إذا علموا باجتماعي بكرد علي يزداد ظن القنصل به سوءا.

فقال السيد رشيد الحاج إبراهيم: أنا لها. أنا سأذهب في هذين اليومين إلى دمشق وأنذر الرجل وأحذره.

الفصلُ السَّادس عشر
الخطر على العرب

مفلـح: ويحسـن أن نفهـم كـرد عـلي أيضـا أن موقـف العـرب صـار كلـه محفوفـا بالخطـر ومـا تعليـق القافلـة الوطنيـة الأولى عـلى أعـواد المشـانق إلا نذيـر سـوء بمـا يتوعـد هـذا العنـصر الـسيء الطالـع.

إني أخـشى أن تكـون سياسـة الاتحـاد والترقـي الحزبيـة قـررت أخـيرا انتهـاز الفرصـة للانتقـام مـن خصومهـا والتخلـص منهـم. وإن سياسـة الفريـق المتطـرف مـن الاتحاديـين الـذي يعمـل بمشـورة الألمـان لتتريـك العنـاصر قـد تغلّبـت، وإذا صـح تشـاؤمنا فـإني أخـشى أن لا تبقـي السياسـة عـلى عـين مفتوحـة مـن العـرب وأن تنقـل أكـثر مـن نصفهـم إلى الأناضـول وتسـتبدلهم بالأرمـن لتضعـف الفريقـين حتـى لا تقـوم لغـير العنـصر الـتركي قائمـة في بـلاد الدولـة العثمانيـة!

رشيد: وما العمل إذن؟

مفلـح: إذا تحققـت مخاوفنا فلا ينقذنا من هذه المأسـاة إلا الثورة.

رشيد: ومن يقوم بها؟

مفلـح: لا يسـتطيع القيـام بهـا غـير شريـف مكـة، فعليـك أن تسـتعمل الحكمـة في إظهـار هـذه المخـاوف في دمشـق لكـرد عـلي وغـيره مـن الوطنيـين ليحادثـوا فيصـلا في الأمـر ويـروا رأيـه في الذهـاب إلى الحجـاز للقيـام بثـورة.

رشـيد: توكلـت عـلى اللـه، فسـأذهب إلى دمشـق وأقـوم بمـا يفرضـه عـليّ الواجـب الوطنـي في ظـرف عصيـب كهـذا.

مفلـح: المهمة خطـرة فيجب أن تتحفظ وتتكتم.

- لا أجهـل خطـورة الموقـف كـما أننـي أشـعر بالمسـؤولية العظمـى التـي ألقيـت عـلى عاتقـي.. فسـأقوم بواجبـي نحـو أمتـي مهـما كلفنـي الأمـر.

- ولكـن مـا فائدة العرب هنا في ثورة الحجاز؟

- الثـورة تثبـت لجـمال باشـا أن العـرب ليسـوا أمواتـا فيخفـف مـن الضغـط عليهـم في سـوريا لئـلا يلتحقـوا بثـورة الحجـاز.

وقف مخلص ورشـيد ليودعا مفلحا.

***

حال مخلص

لاحـظ مفلـح أن مخلصـا غـرق في بحـر مـن التفكـير عميـق وبـدت الحـيرة الشـديدة عـلى ملامحـه فخيّـل إلى مفلـح أن مخلصـا داخلـه الخـوف عـلى صديقـه كـرد عـلي مـن جهـة ومـن أخـرى خـشي عـلى مصـير العـرب الذيـن وُلـد في بلادهـم وتـربى وترعـرع بينهـم وتخلّـق بأخلاقهـم واقتبـس عاداتهـم – خـشي عـلى العـرب مـن سـوء سياسـة قومـه الاتحاديـين، كـما خـشي عـلى كيـان بـلاده ودولتـه مـن ثـورة عربيـة يحتمـل نشـوبها ولم يعـد يعـرف أي موقـف يقـف، وخيـل إلى مفلـح أن مخلصـا كان يناجـي نفسـه ويسـائلها

هـل يذهـب إلى القائـد الأكـبر ويحدثـه بخطـر السياسـة التركيـة المتطرفـة وأن ذلـك لا يفيـد؟

هـل ينبّـه الحكومـة إلى احتـمال قيـام العـرب بثـورة؟ في هـذا خيانـة للعـرب الذيـن يعيـش بينهـم وقـد صـار واحـدا منهـم وصـاروا يأتمنونـه عـلى أسرارهـم.

هل يجعل صدره قبرا لما يسـمع ويترك الأمور تجري في أعنتها؟

هـذا مـا خيـل إلى مفلـح أنـه كان يجـول في أفـكار مخلـص الـذي أحـس بحـرج الموقـف.

***

حال الرشيد

أمـا رشـيد فقـد أبرقـت أسـارير وجهـه وكأنـه أحـس أن مجـال العمـل لأمتـه اتسـع وصـار في مقـدوره أن يـؤدي خدمـات ويقـوم بواجبـات مقدسـة تسـجل اسـمه في صفحـات تاريـخ الوطنيـة.

***

الناصريون والدخيل

عـرف كثـيرون مـن الناصريـين بوجـود مفلـح فيـما بينهـم ومـع ذلـك فـكل منهـم كان يكتـم خـبره عـن سـواه حتـى أن بعـض الإخـوة كتـم الخـبر عـن أخيـه. لأن كل مـن عـرف مفلحـا عـده دخيـلا عليـه فكتـم خـبره حتـى عـن أقـرب النـاس إليـه.

أراد صديـق مفلـح الحميـم السـيد فضـل الفاهـوم أن يمتحـن أخـاه أسـعد قائـلا: سـمعت أن مفلحـا في النـاصرة أصحيـح هـذا؟

أسعد: لست أدري.

فضل: بالله عليك.

أسـعد: لا أكذبك «وكان أسـعد قد زار مفلحا مرتين».

فضـل: فتـش عنـه وإذا اتصلت إلى معرفة شيء فأخبرني لأني أريد أن أزوره.

أسـعد: وأنت أيضا إذا علمت بمكانه أخبرني لأني مشـتاق إليه.

وبعـد نحـو أسـبوع التقـى الأخـوان عرضـا عنـد مفلـح فضحـكا، فسـألهما مفلـح عـن سـبب ضحكهـما فقصـا عليـه كيـف كتـما الخـبر واحدهـما عـن الآخـر.

خروج مفلح من الناصرة

أراد مفلـح يومـا أن يغـادر النـاصرة لأنـه بلغـه أن الحكومـة عـادت إلى السـؤال عنـه فطلـب فرسـا مـن صديقـه الشـيخ محمـود أفنـدي الطـبري فأرسـل هـذا إليـه فرسـا سريعـة الجـري جـدا.

ركـب مفلـح الفـرس وخطـر لـه أن يذهـب إلى عبلـين فحطـين فطبريـا حيـث يمـضي بضعـة أيـام ويعونـد إلى النـاصرة.

***

مفلح والدركي

وصـل مفلـح إلى كفـر كنـا وبعـد أن اجتـاز العـين أراد أن يعـرج عـلى المختـار مبـدا أفنـدي العبـد فلاحـظ أن خيـالا مـن رجـال الـدرك حـول أمـام الـدار فلـوى مفلـح رأس فرسـه وسـار في الطريـق العـام وكان الـدركي لاحـظ حركـة مفلـح فامتطـى جـواده وسـبقه إلى حيـث تلتقـي الطريـق المختـصرة بالطريـق العـام.

لاحـظ مفلـح حركـة الـدركي ولم يبـال لأنـه كان واثقـا مـن سـبق فرسـه وقـال في نفسـه: إذا اضطـررت أطلـق مسـدسي بـين رجـلي فـرس الـدركي وقبـل أن يجمـع رأسـها أنطلـق بفـرسي أسـابق الريـح.

أقبل مفلح على ملتقى الطريقين فألفى الدركي منتصبا على ظهر جواده وبارودته في يده، فقال له مفلح: السلام عليك. فأجاب الدركي إلى أين؟

مفلح: إلى طبريا. ولم يترك مفلح للدركي وقتا للسؤال فابتدره هو بالسؤال قائلا: سألتك بدرة والديك ألست زعبيا؟ «لأنه لاحظ أنه أشقر اللون».

- إن صدقت الوالدة فأنا زعبي.

- كيف الحال على محمد سعيد؟

- أي محمد سعيد منهما؟

- كلاهما محمد سعيد العبيد ومحمد سعيد السولمي.

- الاثنان بخير.

- بالله عليك سلم عليهما كثير السلام.

- سلمت.. من أنت لأقول لهما؟

- قل لهما صديقكما من اجزم.

- الله يسلمك.. ولوى رأس فرسه وعاد إلى جهة كفر كنا لأنه استحى أن يدقق في السؤالات مع صديق أهله.

أما مفلح فرأى أن يستمر في طريقه إلى طبريا كما قال مخافة أن يكون الدركي يراقبه.

***

في مخيم الطبري

دنا مفلح حوالي الغروب من جارة النصارى فرأى فريق سعيد الطبري مخيما وراء التل ورأى خيولا أمام البيت عرف منها حصان الطبري فعرج على الفريق، ومن حسن حظه وجد صديقه سعيد الطبري وابن عمه الشيخ محمود الطبري في بيت الشعر فحول ضيفا عزيزا عليهما وقضوا ليلة سمر استعرضوا فيها جميع الأحوال الخاصة والعامة.

***

الذبيحة

وفي الصباح أراد مفلح أن يذهب مع صديقه محمود إلى قرى شفا طبريا لأن بيت الشعر كان قريبا جدا من الطريق العام والبقاء فيه لا يخلو من الخطر.

ولكن سعيدا قال إن ذبيحتك ذبحت، تغدى والله يسهل عليك.

فلم يبق لمفلح ما يقول، فجلس في مقعده وأخذ يتحدث مع أصدقائه وهم يشربون القهوة.

سرية الجند

وقبل الظهر أقبلت سرية من الخيل آتية من طريق الناصرة، أبصرها سعيد ومفلح ومحمود فأدركوا أنها سرية من وصولهم مخافة إثارة الشكوك لأن الجنود إذا عرجوا على البيت وعلموا بالذبيحة أول ما يخطر لهم أنه لو لم يكن هناك سبب موجب لما غادر الخيال البيت وترك الغداء عندما رأى الجنود مقبلة فيقع أصحاب البيت في مشكلة.

***

تغدى مفلح والجنود

دنت السرية من البيت فانقسمت إلى قسمين، قسم بقي ذاهبا إلى طبريا والقسم الآخر عرج على البيت فاستقبله العرب وربطوا خيوله وفرشوا له فجلس . فعرف بعض الخيالة مفلحا ولكنهم كتموا الأمر رعاية لحرمة البيت.

أسرع «المعزب» المضيف بالغداء فتغدى مفلح والجنود وشربوا القهوة ثم ركب الجنود خيولهم ولحقوا رفاقهم إلى طبريا فودعهم مفلح وقال له بعض الذين عرفوه لا تعد تخاطر بنفسك من بعد الآن.

أما هو فذهب مع صديقه محمود إلى الغور.

الفصلُ السَّابع عشر
حادثان خطيران
الحادث الأوَّل

حـدث حادثـان خطـيران في حيفـا والنـاصرة الواحـد بعـد الآخـر بوقـت قصـير.

الحادثـان يـدلان عـلى شـكل السياسـة الألمانيـة التـي كان يدبرهـا الدكتـور لوينفـت قنصـل ألمانيـا في فلسـطين.

وجـد في صنـدوق البوسـطة بالكولونيـة الألمانيـة كتـاب إنـذار للحكومـة العثمانيـة بـضرورة رفـع الضائقـة عـن الأهـالي وإجـراء الصلـح مـع الحلفـاء وإلا فالأهـالي يرفعـون رايـات التسـليم عندمـا تـزور بـوارج الأعـداء ميـاه حيفـا.

***

ضعف الموظفين

لم يكـن في حيفـا في ذلـك الوقـت قائممقـام جـريء أو قومنـدان عسـكرية جسـور وصاحـب وجـدان، فصـار هـذان يعمـلان بـإرادة وتدريـب ترجـمان قنصـل ألمانيـا يومئـذ فقبضـوا عـلى بضعـة شـبان كاثوليـك وفي مقدمتهـم السـيد وديـع صنـبر وأبيـه السـيد خليـل الـذي كان قنصـل ألمانيـا يكرهـه كراهـة شـديدة لحبـه للفرنسـاويين، وقبضـوا أيضـا عـلى السـيد ميخائيـل خـوري لأنـه كان صديقـا لقنصـل فرنسـا وعـلى بعـض ذوات مـن آل منصـور

وأهانوهـم واضطهدوهـم وسـاقوهم إلى الديـوان العـرفي في القـدس، وبعـد محاكمتهـم وثبـوت براءتهـم قالـت المقامـات العسـكرية والملكيـة في حيفـا أن رجوعهـم إليهـا لا يناسـب فنفـوا إلى الأناضـول، وهكـذا شـفى قنصـل ألمانيـا وترجمانـه غليليهـما ولا يبعـد أن يكـون كثـيرون منـا يتحملـون اليـوم متابعـات مـن جـراء مواقـف الجـبن التـي يقفهـا بعـض موظفـي العـرب والإنجليـز أيضـا في إدارة فلسـطين حيـال تهـم الجواسـيس.

***

مفلح الغساني

وبعـد ذلـك دعـا القومنـدان العسـكري بحيفـا بعـض الـذوات إليـه وسـألهم عمـن يمكـن أن يكـون كتـب هـذا الكتـاب ووضعـه في صنـدوق البريـد فلـم يجـرؤ أحـد منهنـم أن يقـول أن هـذه حادثـة مصطنعـة، وأن الذيـن نفـوا بسـببها مظلومـون، بـل قـال أحدهـم ممـن كان لـه علاقـة قبـل الحـرب بقونصولتـو فرنسـا: يغلـب عـلى ظنـي أن مفلـح الغسـاني هـو الـذي كتـب هـذا المكتـوب ووضعـه في صنـدوق البوسـطة في الكولونيـة الألمانيـة.

ولمـا خـرج وجـوه المسـيحيين مـن عنـد القومنـدان قـال أحدهـم للـذي رمـى هـذه التهمـة عـلى عاتـق الغسـاني معاتبـا: ألا خـاف اللـه؟ كيـف تتهـم مفلحـا بهـذه التهمـة؟ ألا تكفيـه مصائبـه؟!

فأجـاب هـذا: ومـاذا يضـيره إذا زدنـا عـلى تهمـه تهمـة؟ أوليـس هـو فـار مـن وجـه الحكومـة؟

بلـغ مفلـح هـذا الأمـر فخطـر لـه الكتـاب الأول الـذي أراد صديقـه أن يحملـه عـلى وضعـه في جيبـه ليسـدي خدمـة لقنصـل ألمانيـا وقـال في نفسـه: لعـل هـذا أيضـا يريـد أن يتقـرب بي مـن القنصـل فـلا حـول ولا قـوة إلا باللـه.

***

الحادث الثاني

أمـا الحـادث الثـاني فهـو أن المرحـوم بطـرس طنـوس في النـاصرة تلقـى وأخـوه حنـا كتابـا كأنـه صـادر مـن مصـدر فرنسـاوي يرشـده فيـه إلى القيـام بحـركات ثوريـة وعمـل إشـارات للبـوارج مـن عـلى جبـل الشـيخ وغـير ذلـك مـن الأمـور الموجبـة للمؤاخـذة فـما كان مـن بطـرس إلا أن حمـل الكتـاب تـوا إلى القائمقـام وكان تركيـا جريئـا مسـتقيما اسـمه خالـد بـك فأعلـم هـذا رؤسـاءه ونفـى الشـبهة عـن بطـرس طنـوس الـذي دب الرعـب في قلبـه وقلـوب أصحابـه وخافـوا أن تكـون هـذه دسيسـة لقتلـه وإيقـاع النصـارى في مشـكلة، وطلـب خالـد بـك مهلـة وسـلطة ليفحـص عـن القضيـة ويكتشـف أسرارهـا، فأعطـي، وبعـد يومـين ثلاثـة اهتـدى إلى مديـر هـذه الدسيسـة وكان مهندسـا ألمانيـا اسـمه انـدلي، فسـيق هـذا إلى الديـوان العـرفي ونجـا طنـوس مـن عيـون الشـبكة بفضـل القائمقـام الـتركي الجـريء النزيـه.

الفرق في الجراءة

قائمقام الناصرة خالد بك لم يشأ أن يلوّث بطرس طنوس وأخاه والكاثوليك في الناصرة بدسيسة لندلي فطلب تفويضا ومهلة ليبحث الحقيقة ونجح في كشف الدسيسة وتخليص الأبرياء.

أما في حيفا فلم يجرؤ القائمقام ومتصرف عكا والقومندار أحمد شكري بك، وكانوا كلهم عربا أن يبدو أدنى ملاحظة مع أنهم استدعوا السيد عبد الله مخلص وأخذوا رأيه في الأمر فقال لهم أنا لا أعتقد أن نصرانيا يجرؤ على كتابة هذا الكتاب الذي ليس فيه شيء من المنطق ويحمله إلى الكولونية الألمانية ليضعه في صندوق بريدها. ومن الأمور المعلومة أن قنصل ألمانيا يكره خليل صنبر وابنه كما يكره ميشال خوري وهو الذي دبر هذا للكيد لهم، فإذا أجريتم تحقيقا فالحقيقة تتجلى، فقال له الكومندان أحمد شكري بك أتريد مني أن أقول لجمال باشا إن هذه دسيسة من تدابير قنصل ألمانيا وقنصل ألمانيا اليوم الكل في الكل عند الباشا في الشام؟ فأجابه السيد مخلص: أنا لا أريد أن أملي عليك ما تقوله للقائد العام وإنما أنتم استدعيتموني لتقفوا على رأيي فهذا رأيي أبديته لكم.

الفصلُ الثَّامن عشر

سفر الشيخ وجيه

سافر الشيخ وجيه زيد على ظهر دارعة أمريكية إلى أميركا من بيروت ليحاول إقناع معارفه من رجالات أمريكا بعدم دخول الحرب ضد ألمانيا وتركيا والنمسا، وليقوم بدعاية من هذا القبيل فشعر العقلاء أن ضباط الفرقة في الناصرة خسروا مستشاراص حكيما ومرشدا كريما وصار الناس يخشون أن يصير الفساد شأن وصوله وهكذا كان.

***

اضطراب الموقف وتنمر القائد

اغتر جمال باشا بما رأى وخبر من أحوال البلاد فقد كانت الوشايات تتوارد عليه من كل ناحية حتى أن الأخ كان يشي أحيانا بأخيه، وكان المنزلفون يتزاحمون على باب مقره ليتقربوا منه بالدس بعضهم على بعض وعلى خيار الناس، ولما علق القافلة الأولى من رجالات العرب رحمهم الله، وكان منهم عبد الكريم الخليل وسليم عبد الهادي وأولاد المحمصاني وعمر حمد وغيرهم بدلا من أن يرى استياء ونقمة عامتين كان كثيرون يحسنون له عمله ويمجدونه عليه ويتهمون الشهداء بالخيانة إرضاء له حتى قيل أنه لما مر بجنين ذهب المرحوم حافظ باشا إلى المحطة للسلام عليه فاعتز الرجل بنفسه وتحقق أن البلاد ليس فيها رجال أشداء يخشى بأسهم، فلم يعد يحترم أحدا وأخذ

يلقي القبض على كل أعضاء حزب اللامركزية وخصوم الاتحاديين ويودعهم الديوان العرفي وبدأ يغرب العائلات إلى الأناضول.

***

اشتد الجفاء

فازدادت الكراهة العنصرية بين العرب والترك في الجيش، وساءت معاملات كثيرين من صغار ضباط الأتراك للجنود العرب واستولى اليأس على النفوس وصار العرب يفرون من الجيش وبدأت النعرة العربية العنصرية تتجلى والشمم يستيقظ وكأن الله أراد أن يعمي بصيرة جمال فصم أذنيه عن توسلات المخلصين الذين كانوا يسألونه أن يبدل حكم الإعدام على رجالات العرب بالنفي وأصغى لفتوى المحدث الكبير الشيخ بدر الدين وأمر بإعدامهم فأعدم بعضهم في بيروت والبعض الآخر في الشام، فلم يبد من فوزي باشا العظيم الذي شنق ابنه غير الاستحسان في الظاهر فاحتقر جمال طبعا الأمة التي تعبد زعماء يتظاهرون كذبا بالرضا عن تعليق أبنائهم على أعواد المشانق ولكن النفوس العربية التي كان قد نبه فيها الضغط والاضطهاد والحوادث شمما أضمرت السوء لجمال وللدولة العثمانية من ورائه.

هرب فيصل

أفاق فيصل في ذلك الوقت من غفلته وأدرك أن موقفه في الشام صار مخطرا لأن جمال كان قد بدأ يشعر أن موقف الحسين في مكة صار مريبا.

ساعد الشيخ الشقيري، على ما بلغنا، فيصلا ليذهب إلى أبيه ويوفق بينه وبين القاسد العام وما بلغ فيصل المدينة حتى أعلنت الثورة العربية. أفاق جمال من غروره بنفسه وبيأسه ولكن متأخرا.

وقد أحدث إعلان الثورة تغييرا في سياسة جمال نحو العرب فتوقف عن النفي الكثير إلى الأناضول وخفف الشدة في معاملات الذين يحالون عإى الديوان العرفي وقل التعليق على أعواد المشانق.

وفترت العلاقات مع القنصلية الألمانية وبدأت العلاقات تفتر بين القيادة العليا في سوريا والحكومة العثمانية في الأستانة.

الفصلُ التَّاسع عشر
تهمة جديدة

بعدما برئت ساحة رجالات الكاثوليك بحيفا الذين أراد قنصل ألمانيا أن يتهمهم أنهم كتبوا كتاب الإنذار للحكومة بأنهم يرفعون راية التسليم لبوارج الأعداء متى زارت ميناء حيفا إذا لم تهتم الحكومة بتموين الأهالي الجياع، وبعد أن نفذت سياسته فيهم ونفوا إلى الأناضول وقد فاتنا أن نذكر اسم السيد أنيس قشقوش معهم - يظهر أنه رأى من المناسب توجيه التهمة على مفلح الغساني وتضافرت وهذا الرأي عوامل دنيئة على توجيه هذه التهمة إليه فتقدمت تقارير من أنذال بهذا المعنى إلى القائد العام جمال باشا.

***

التفتيش على مفلح

والظاهر أن هذه التقارير ذكرت الباشا بشكايات والأعوان والمستشارين الذين كانوا يحيطون به يوم أوغروا صدره على مفلح وإن كان أحدهم قنصل ألمانيا قد مات موتة شنيعة بالتيفوس والثاني اضطره الباشا أن يرجع إلى الأستانة لعند سيده أنور باشا ولم يبق عنده من أقاليم الفساد الثلاثة غير واحد فأصدر أوامره المشددة إلى والي بيروت بأن يقبض على مفلح حيا أو ميتا. فأجريت بعض تحريات وتدقيقات عرف بها أين كان مفلح متواريا يوم غادر حيفا وبعد ذلك.

تحري البيوت

أصدرت أوامر مشددة إلى قائمقام حيفا يومئذ حامد بك وكان هذا من رؤساء العصابات في البلقان- أن يصطحب قوة كافية ويذهب ويكبس البيوت التي كان مفلح يتوارى فيها بالناصرة.

فذهب هذا بقوة عشرين شرطي وأربعة أنفار بوليس ودخل الناصرة عند منتصف الليل فأحدق ببيت السيد كامل قعوار وكان كامل متواريا من العسكرية وأبناء عسكريين ولم يكن في البيت غير قرينة كامل وخادمتها، ففتشوا البيت والبستان تفتيشا دقيقا.

ثم فتشوا بيت عيسى الدويري إلى جانبه ولم يكن في البيت غير قرينة صاحبه وأولادها الصغار، وفتشوا بيتا آخر في البلدة فلم يتوفقوا إلى العثور على مفلح الذي كان لحسن حظه نائما في غرفة لا تبعد خمسين مترا عن بيت الدويري وبيت كامل قعوار.

***

كيف عرف مفلح

لم تشأ قرينة كامل قعوار أن تذهب ليلا لتوقظ مفلحا وتنبهه إلى الخطر المحدق به مخافة أن تكون العيون والأرصاد مبثوثة.

انتظرت إلى الصباح فقامت وتفقّدت البستان والطريق ثم انسلت من طريق داخلية في بستان للجيران وخرجت من دارهم إلى غرفة

مفلح وأعلمته بأن قائمقام حيفا وشرذمة من رجال الشرطة والبوليس يطاردونه ويتعقبونه.

***

ابن الحلال

وكان مفلح قد نقل من بيت السيد عيسى الدويري إلى هذه الغرفة على أثر السؤال عنه، فقد استعدى قومندان الموقع رمزي بك السيد عيسى وسأله عما إذا كان مفلح مختبئا عنده فأنكر فشدد عليه السؤال وهدّد فأصر على إنكاره وكان عند القومندان ساعتئذ رجل معمم من حيفا، فأخذ يسدي للسيد الدويري النصائح ليسلم مفلحا أو يدل على مفلح إذا كان يعرف مكانه وقال له: أنت رجل مقاول ولا علاقة لك بالسياسة ومفلح هذا يشتغل بالسياسة وهو جاسوس للإنجليز وخائن للدولة فيجب عليك أن تسلمه إذا كان عندك أو تدل عليه إذا كنت تعرف مكانه.

فقال السيد عيسى: هذا الرجل قد زارني أول الحرب مرة ومع تجارة صغيرة فعاونته على تصريفها، ومنذ ذلك الحين لم أعد أراه.

فقال الكومندان وكأنه أراد بهذه المناورة أن يقول للسيد عيسى إن كان مفلح عندك فدعه يتوارى لأننا قد نضطر إلى تفتيش بيتك.

فجاء السيد عيسى إلى البيت وهو في حالة اضطراب شديد وقص على مفلح ما جرى له وأخبره عن الشيخ ونصائحه ووصفه له فأدرك مفلح

أن الكومنـدان يريـد منـه أن ينبّـه مفلحـا ليتـوارى ولم يلتفـت إلى موقـف الشـيخ هـذا.

غـادر مفلـح النـاصرة مـدة أسـبوعين، ولمـا لم يفتـش عليـه أحـد وكان أصحابه قـد اسـتأجروا لـه غرفـة قريبـة مـن دار السـيد كامـل والسـيد عيـسى، عـاد إليهـا وسـكن فيهـا وجـرى تفتيـش بيتـي صديقيـه وهـو في تلـك الغرفـة.

***

بين مفلح وابن الحلال

ومـن غريـب الاتفـاق أن مفلحـا بعـد أن خلـص مـن الديـوان المعـرفي وعـاد إلى حيفـا، جـاء الشـيخ للسـلام عليـه وقـال: أنـا كنـت مـرة عنـد كومنـدان موقـع النـاصرة وكان قـد أتـاه سـؤال عنـك واسـتدعى رجـلا مـن النـاصرة كان يظـن أنـك في بيتـه وهـدده فرجـوت الكومنـدان أن يغـض الطـرف ولا يشـدد عـلى الرجـل ففعـل.

قـال مفلـح للشـيخ عنـدي خـبر القصـة مـن أولهـا إلى آخرهـا ولا أزال أتذكـر وقائعهـا كـما وقعـت.

أفأنـت هـو ذلـك الصديـق الـوفي البـار بإخوانـه؟ فصمـت الشـيخ واصفـر وجهـه واعتـذر وقـام وانـصرف. أمـا مفلـح فلـم يكـن يسـتغرب صـدور ذلـك منـه ولم يكـن يفكـر في مؤاخذتـه لأنـه كان يشـعر بالحاجـة إليـه والاسـتفادة مـن عمامتـه للحركـة الوطنيـة وخصوصـا في التطـوّر الـذي تطورتـه القضيـة الفلسـطينية بعـد الاحتـلال.

مفلح يتلقى الخبر

انسلت قرينة السيد كامل قعوار باكرا في الصباح من بين البساتين كما قلنا وذهبت إلى غرفة مفلح وكان لا يزال نائما، فقرعت الباب عليه فنهض مسرعا لأنه خشي أن يكون رجال الدرك أتوا ليقبضوا عليه وسأل من الطارق؟ فقالت أم الأمين، ألا تزال هنا؟

- ما الذي أتى بك عند الفجر؟

وأسرع إلى الباب وفتحه. فقصت عليه أم أمين كيف أن قائمقام حيفا جاء مع أكثر من عشرين خيالا وفتش بيتها والبستان ثم أخذ يسألها عن مفلح الغساني، ثم ذهب وفتش بيت السيد عيسى الدويري.

فتناول مفلح عباءته ووضعها على كتفه وتناول ثروته وكانت لا تزيد على ثلاثة ريالات مجيدية باقية من خمسة بعث بها إليه صديق، وقال لصاحبة البيت التي أفاقت على الحركة وجاءت لترى ما الخبر: أنا ذاهب.

الفصلُ العشرون
أنا ذاهب

- إلى أين؟

- لست أدري. إلى حيث يرشدني ربي.. ومشى مسرعا.

ذهب مفلح إلى عين ماهل وأكل لقمة عند صديق للسيد كامل قعوار ومشى إلى غابة الصبيح وأكل رغيفا عند بيت عثمان الشهاب وتقدّم إلى قرية دبورية.

***

توفيق بك الفاهوم

دخلها والظلام قد خيم فقصد إلى بيت توفيق بك الفاهوم وكان مريضا بالملاريا فرحب به توفيق بك وقص عليه مفلح ما كان.

ولما انتهى من حديثه قال توفيق بك لخدامه أعدوا عشاء لمفلح وحضروا لي فرسي لأني أريد الذهاب إلى الناصرة لأتداوى.

خطر لمفلح أن توفيق بك يمكن أن يكون داخله بعض الخوف من مسؤولية وجود مفلح عنده في حين أن الحكومة تطارده، فأحب أن يتقيها بترك البيت ولكنه قدر له من الجهة الأخرى حفاوته به

وتوصيتـه عليـه وإيثـاره أن يتركـه وهـو مريـض مـن أن يقـول لضيفـه أو دخيلـه أخـاف أن أقبلـك في بيتـي.

وخطـر لمفلـح أن يـبرح هـذا المـكان ولكنـه خـشي أن تكـون الجنـود تطـارده وأن تصادفـه في الليـل فـلا يسـتطيع الفـرار منهـا عـلى رجليـه وخصوصـا لأنـه يجهـل الطـرق في الليـل. فصـبر عـلى مـا أحدثـه مـن الانزعـاج للبيـك وقـال في نفسـه للـضرورة أحـكام. والعـرب أقـل مـا يفـرض عليهـم إيـواء الدخيـل مهـما كان في ذلـك مـن خطـر.

نـام مفلـح تلـك الليلـة نومـا هادئـا مـع بنّـاء مـن النـاصرة اسـمه السـيد زكريـا التومـا اتفـق أنـه كان يشـتغل عنـد توفيـق بـك في دبوريـة، وفي الصبـاح قـام مفلـح فأعـد لـه زكريـا طعامـا فـأكل ويمـم أنـدور «عـين دور» قريـة المرحـوم عبـد اللـه بـك الفاهـوم.

***

عبـد الله بك والعروبة الشريفة

واللـه لأجعلنهـا تجربة للنخـوة العربية ومشى ولم يعد يفكر فيها.

أقبـل مفلـح بعـد مسـيرة نحـو سـاعتين عـلى بيـادر أنـدور وكان عبـد اللـه بـك جالسـا أمـام مضافتـه مشرفـا عـلى البيـادر وعنـده ضيـف مـن البـدو. فلـما رآه مفلـح شـعر بارتيـاح وطمأنينـة وتجـدد نشـاطه. أمـا عبـد اللـه بـك فلـم يعـرف مفلحـا حتـى أقبـل عليـه وألقـى التحيـة فنهـض عبـد اللـه

بـك وصافـح مفلحـا وقبلـه ورحـب بـه كثـيرا وأول سـؤال خطـر لمفلـح وهـو ذاهـب إلى أنـدور أنـه انتقـد مـرة أو مرتـين عبـد اللـه بـك الفاهـوم حتـى أنـه نـدد مـرة بالحكومـة وقـال هـل أصبحـت أنـدور اللجـاه حتـى أنـه يتعـذر عليكـم القبـض عـلى متهـم فيهـا؟

وسـأل نفسـه: أيمكـن أن يسـلمني عبـد اللـه بـك بهـذه؟؟!.. فلـم يداخلـه أدنى ريبـة في شـهامة عبـد اللـه بـك ومروءتـه وقـال أخـيرا سـأله إيـاه: لمـاذا أتيـت ماشـيا أليـس عنـدك مـن خيـل أخيـك الهيجـاوي ولا واحـدة؟ أولا يوجـد خيـل عنـد آل الفاهـوم حتـى تـأتي ماشـيا؟ فقـال لـه مفلـح همسـا سـأحدثك بحديثـي، ودخـل وإيـاه إلى المضافـة فقـص مفلـح عـلى البيـك حكايتـه. فقـال عبـد اللـه بـك لمفلـح لـنرى مـا يكـون والكاتبـه ربـك يصـير.

جلـس مفلـح وتعـرف إلى الضيـف البـدوي وأقبـل اثنـين مـن أخوان عبـد الله يسـلمون عـلى مفلـح ورحبـوا بـه وبقـي هـو والبيـك يتحدثـان ويحدثـان البـدوي إلى أن طلـع الغـداء وكان قـد جـاء بعـض اختياريـة القريـة وبعـض الضيـوف فتغـدوا جميعـا وشربـوا القهـوة وتفرقـوا.

قفـل عبـد الله بك باب المضافة الخارجي وسـأل مفلح على ما صممت؟

- لم أقرر شـيئا بعد.

عبد الله: أتريد أن تتوسـع «تهرب»؟

- أحب أعرف شـيئا عن موقف الحكومة تجاهي.

- وهـل تريـد أن تعـرف أكـثر مـما عرفـت؟ هـم يعتقـدون أنـك إنجليـزي

من كثرة ما كنت تقول يجب أن توالى الحكومة العثمانية إنجلترا وقد كدت تحرق قلب قنصل ألمانيا بكتاباتك. وهل نسيت حملاتك على الأمير شكيب الذي جاء إلى القدس يبشر بالاتحاديين وبمبادئهم قبل إعلان الحرب ببضعة شهور؟ وعلى مبعوثنا المحترم، فقد صوروك في نظر جمال باشا إنجليزيا وجاسوسا وعدوا للاتحاديين وهم يتعقبونك ليعلقوك كما علقوا سواك.

- لنصبر إلى الغد علنا نقف على وضعية الحكومة تجاه أصدقائي الذين عطفوا علي في مخبئي.

- لا بأس بانتظارك يومين ثلاثة ولا أحد يشك بوجودك عندي لن الناس لا يزالون يذكرون أنك حملت علي بشدة أكثر من مرة.

أحنى الغساني رأسه وكأنه قال للبيك ليس هذا وقت التنديد، فأخذ عبد الله بك نفسه وأقسم أنه إنما قال ما قاله بكل بساطة ولم يقصد التنديد البتة.

***

محاولة عبد الله بك

- ما رأيك في أن تعطيني كتابا إلى الأستاذ الشقيري تقول له فيه أنك لم تكن ضده بل كنت على خلاف وإياه في بعض وجهات النظر وتترك لي الباقي.

- لقد حدثني بشيء من هذا ابن عمك السيد فضل الفاهوم وأجبته حينئذ أني أفضل حبل مشنقة جمال باشا على أن أذل نفسي لخصم سياسي وأتزلف منه في وقت الضيق.

ربما تفاهمت مع الأستاذ إذا بقيت حيا إلى ما بعد انقضاء الحرب أما الآن فأنت لا ترضى لي بهذه النذالة.

احمر وجهه وقال: أنا عربي أنوف مثلك إن لم أكن أكثر منك، وإنما أردت بهذا أن أحاول تخليص حياتك لأولادك الصغار.

***

الخيل في أثر مفلح

سقطت دمعة حارة من عينيه ولفظ اسم ابنته فاغرورقت عينا عبد الله بك بالدموع واختنق صوته وصمت برهة وإذا بأحد إخوته الذي كان واقفا خارج باب المضافة دخل وقال ثلاثة من رجال الدرك أقبلوا ووجهتهم إلينا.

الفصلُ الحادي والعشرون

للحال فتح عبد الله المضافة المؤدية إلى البيت وقال لمفلح ادخل. لم يشأ مفلح أن يدخل إلى عند الحريم لئلا يرعبهن فجلس وراء باب المضافة.

***

وصف التعقيب

أما عبد الله بك فأطل من باب المضافة الخارجي وكان خيالة الدرك قد اقتربوا منه ففرش لهم وقال أهلا وسهلا - حولوا الضيوف يا عيال. فقام بعض الشبان ومسكوا رؤوس خيل الدرك وحولوهم وسلم عليهم عبد الله بك وإخوانه وأدخلوهم إلى المضافة وأجلسوهم. ولما استوى بهم المقام أداروا عليهم القهوة وقدموا لهم السجاير وقال لهم عبد الله بك: أعلمونا بأخبار الناصرة. وكان يومئذ مركز فرقة، فقالوا له: إن الناصرة ساكنة إلا أن هناك أوامر مشددة جاءت من جمال باشا الكبير بالتحري عن مفلح الغساني والقبض عليه حيا أو ميتا وإرساله إليه مخفورا إن كان حيا، وقد تبلغنا قائمقام حيفا حامد بك عن طريق المتصرفية. وهذا الرجل شر بحت فركض في عشرين دركي وأربعة رجال بوليس ودخل بنا الناصرة ليلا وفتش بعض البيوت، ولما لم يعثر فيها على أحد كاد يختنق غيظا فاجتمع بابن عمك سعيد بك وطلب إليه أن يعاونه في التفتيش، فأرسل سعيد بك يطلب عبد الله الحسين الملاك شيخ الصقر. أما الدرك ففرقنا القائمقامفي جهات

مختلفة وجاءت قرعتنا نحن أن نفتش في هذا الجهة على مفلح، ولقد مررنا بدبورى فأخبرونا أن رجلا غريبا ضاف بالأمس بيت توفيق بك وغادره في الصباح وأوصاف هذا الرجل تشبه أوصاف مفلح الغساني.

***

عبد الله بك والدرك

أصعد عبد الله بك زفرة وقال: آه لو تعلمون كم أنا ناقم على هذا الرجل فقد أساء لي أكثر من مرة وندد بأعمالي وعير الحكومة مرة بأن أندور ليست اللجاة حتى يتعذر القبض على متهم فيها، فلو عثرت عليه لحملته بأسناني إلى جمال باشا وانتقمت لنفسي منه.

أحد الدرك: ألم تسمع بأخباره؟ ألم يذكر أحد أنه مر من هذه النواجحي اليوم؟

عبد الله بك: لو أن أحدا ذكره لطاردته وقبضت عليه بنفسي وسقته أمام فرسي إلى الفرقة بالناصرة لتبعث به إلى جمال باشا.

دركي: ألم تسمع أنه كان مختبئا بالناصرة منذ مدة طويلة؟

- لا لم أسمع.

- أيمكن أن يكون هذا وابن عمك السيد فضل وأخوه أسعد وأخوك عبد الحميد أفندي أصدقاءه وقد اتصل بالحكومة أنهم كانوا يزورونه ويعطفون عليه؟

- أنـا أعـرف أن أخـي عبـد الحميـد هـذا صديـق لمفلـح كـما أن فضـل وأسـعد يحبانـه كثـيرا ولكـن هـؤلاء يعرفـون أني ناقـم عليـه فـلا يذكـرون شـيئا عنـه عـلى مسـمع منـي. قلـت لكـم إني لـو علمـت بمحـل وجـوده لركبـت وقبضـت عليـه بنفـسي.. ومـع هـذا سـأتحرك وإياكـم مـا دام القائـد العـام يلـح بطلبـه، وأرجـو أن نتوفـق إلى القبـض عليـه وتسـليمه لتخليـص البـلاد منـه.

لمـا سـمع رجـال الـدرك أن عبـد اللـه بـك ناقـم عـلى مفلـح اطمأنـوا لعـدم وجـوده عنـده وأملـوا أن يسـاعدهم عـلى تنسـم أخبـاره في تلـك النواحـي فخلعـوا جزماتهـم وألقـوا عقلهـم عـن رؤوسـهم ورفعـوا صفـوف الفشـك مـن أعناقهـم واتـكأوا عـلى وسـائدهم ومـا هـي إلا برهـة حتـى نامـوا. فلـم تـرق وضعيتهـم لعبـد اللـه بـك لأنَّـه خـاف إذا نامـوا في تلـك السـاعة ألا يعـودوا ينامـون في الليـل وأن يفسـدوا عليـه تدبـيره فأيقظهـم وقـال: أراكـم تريبـدون أن تنامـوا وهـل ينـام مـن يعهـد إليـه بمثـل هـذه الوظيفـة الهامة؟ اقعـدوا لنفكـر فيـما نفعـل عـل اللـه يرشـدنا إلى هـذا العـدو للدولـة. إن القبـض عليـه شرف لكـم ويفـش غـلي أنـا الـذي أشـعر أن وقـت انتقامـي مـن هـذا الخصـم قـد دنـا.

خجـل الشرطيـون وجلسـوا وفركـوا عيونهـم وأظهـروا أنهـم يهتمـون بمهمتهـم أكـثر مـن عبـد اللـه بـك. فقالـوا لـه نحـن كنـا نريـد أن ننـام سـاعة لنسـتيقظ ونسـتأنف التحـري ليـلا.

عبد الله بك: لا أنتم لا تستطيعون العثور عليه ولو كان معكم في بيت واحد لأن الناس يحبونه ولست أعلم ماذا يحبون فيه ويكتمونه عنكم. ألم أقل لكم إن أخي وابن عمي كتماه عني؟

أما أنا فسأتحراه بواسطة رجالي سرا في القرى المجاورة وإذا اعتدوا إلى مقره ذهبت وإياكم وكبسناه وقبضنا عليه وسقناه ماشيا أمام خيولنا إلى الناصرة لنسلمه، ومن الضروري أن أرافقكم إذا قبضنا عليه لئلا يلاقيكم بعض المتحمسين ويحاولون تخليصه منكم.

***

الوليمة

بقي الخدم في بيت عبد الله يكرمون ضيوفه الجنود على حسب العادو بمسامرتهم والإكثار من تقديم القهوة والدخان لهم.

وقبيل الغروب حول اثنان من إخوان عبد الله وأربعة ضيوف من العرب فامتلأت المضافة بالضيوف وبوجهاء القرية.

طلع العشاء فسد الضيوف على المنسف وبعد أن صدروا تقدم وجهاء القرية وإخوة عبد الله بك وتعشوا وكان البك واقفا كل الوقت على رجليه يرحب بضيوفه على اختلاف طبقاتهم ويلاحظ الطعام والماء، وبعدما تعشوا وشربوا القهوة وتعللوا بأحاديث طيبة قال عبد الله بك للجنود ربما تريدون أن تناموا؟ فقالوا: نعم.

تدابير عبد الله

عبـد اللـه بـك: أنتـم هنـا عـلى الرحـب والسـعة ولكـن الضيـوف وأخـواني كثـيرون وإذا نمتـم وإياهـم في المضافـة ربمـا لا تسـتريحون، وأنتـم عليكـم أن تسـتأنفوا التحـري باكـرا فيجـب أن تسـتريحوا في النـوم لتقومـوا نشـيطين. فدعنـي آخذكـم إلى عنـد المختـار لتنامـوا في عليتـه.

- رأي حسن.

فقامـوا وذهبـوا مـع عبـد اللـه بـك فقرعـوا بـاب بيـت المختـار ففتـح وفـرش لهـم في العليـة وجلـس عبـد اللـه بـك يسـامرهم حتـى نامـوا ثـم قـام وعـاد إلى البيـت وكان قلبـه يغـلي كالنـار عـلى دخيلـه، فـما صـدق أن دخـل المضافـة وكان أخوتـه فيهـا قـد نامـوا ففتـح بـاب الـسر وأراد أن يذهـب إلى البيـت لـيرى مفلحـا ولكـن مفلحـا عمـل حركـة ميكانيكيـة فانتبـه البـك وقـال بصـوت منخفـض: أنـت هنـا؟ لمـاذا لم تدخـل إلى عنـد الحريـم؟ هـل تعشـيت؟

مفلـح: كلا، لم ينتبه أحد لوجودي هنا.

عبـد اللـه: أذهـب وآتي بـشيء مـن الطعـام.. وبينـما كان مفلـح يـأكل قـال البـك: والآن مـاذا تريـد أن تفعـل؟

الفرار

مفلـح: الأفضـل أن أغـادر هـذا المـكان قبـل الصبـاح لئـلا يكـون أحـد المزارعـين قـد عرفنـي فيذكـر اسـمي فيبلـغ رجـال الـدرك فتضطـر إمـا أن تسـلمني أو تُعـرّض نفسـك لمسـئولية كـبرى.

عبـد اللـه: كمـل عشـاك. وأنـا نـازل إلى الإسـطبل لأسرج فـرسي ومهـرة إبنـي عبـد المجيـد فأوصلـك إلى حيـث تريـد.

- دع غـيرك يعدد على الخيل.

- لا أريـد أن يقـف أحـد عـلى تدابيرنـا حتـى ولا أولادي ولا صاحبـك عبـد الحميـد.

سـقطت دمعـة مـن عينيـه لم يلاحظهـا عبـد اللـه بـك لأن مفلحـا تذكـر كيـف انتقـد هـذا الرجـل الـذي يحمـل في رأسـه مثـل هـذه الشـهامة العظيمـة ويتحـلى بـأشرف التقاليـد العربيـة.

مـا هـي إلا دقائـق حتـى كان الفارسـان عـلى فرسـيهما فنـزلا عـلى مهـل مـن وراء البيـادر وسـارا حتـى ابتعـدا عنهـا قليـلا فلـم يشـعر بهـما أحـد لأن الـكل كانـوا نيامـا.

لوى عبد الله بك رأس فرسـه وقال لمفلح: هل قررت في أي جهة تسـير؟

صممـت أن أذهـب إلى طـيرة بـلاد حارثـة وأود أن ترافقنـي إلى أسـفل الجبـل القائمـة عليـه القريـة ومـن هنـاك أنـا أدبـر نفـسي.

عبد الله: حسن، فأنا إذا استعجلنا يتاح لي العودة قبل بزوغ الفجر إلى بستاني فأتوضأ وأصلي الصبح حاضرا وأعود إلى القرية حسب عادتي قبل الشمس فأزور الدرك وأشرب معهم القهوة وأتظاهر وإياهم باستقصاء أخبارك، ولعلي أتمكن من صرفهم في طريق غير طريقك هذا.

- سمعت كل ما دار بينكم من الحديث في المضافة وقد أحسنت بتطمينك إياهم وبعدم تركهم ينامون في النهار ليستغرقوا في الليل ويتضحوا في النوم صباحا. ما دمت تريد العودة قبل طلوع الشمس إلى البلد فلنسرع لئلا يضيع الوقت.

أطلق الفارسان رأسي فرسيهما وسارا طرادا مسرعين وما هي إلا ساعة حتى وصلا إلى أسفل التل القائمة عليه الطيرة فوقف مفلح وترجل وترجل عبد الله بك أيضا وشكر مفلح البيك شكرا صميميا وقال: أرجو أن يكون العرب الذين يحافظون على مكارم أخلاق الإسلام مثلثك كثيرين.

- لم أفعل شيئا من أجلك. ما فعلته هو من أجل نفسي وسمعتي وسمعة قومي، ويا ليت في وسعي أن أفعل أكثر. ثم التفت إلى مفلح وكأنه فطن إلى شيء كان قد نسيه وقال: أمعاك فلوس؟

- الغيورون الخيرون مثلك ليسوا قليلين فأنا لم أحتج إلى اليوم خبزا ولا مالا لأنفق على حاجاتي الضرورية.

مد عبد الله بك يده إلى جيبه فوجد ليرتين فرنسيتين ذهبا فقال لمفلح: هذا ما اتفق وجوده في جيبي. والله لم يخطر لي أمر الدراهم فاكتب لي أينما كنت وأنا مستعد لتقديم ما تريد.

تصافح الاثنان وتعانقا وقال عبد الله بصوت تخنقه العبرات : ربي يقيك ويسلمك بجاه محمد. أما مفلح لم يجب لأنه كان متأثرا. لف عبد الله رسن مهرة نجله على رقبتها وقشط عنانها من رأسها ووضعه في خارج فرسه واعتلى ظهرها وأغار عائدا إلى أندور. أما مفلح فصعد الجبل الهوينا إلى الطيرة وهو غارق في أفكاره وقد قال في نفسه: هذا عبد الله بك الذي انتقدته بشدة يظهر مثل هذه المروءة والغيرة عليّ في ضيقي، أليس مثل هذه الأعمال عبرة للعرب ليوسعوا صدورهم ويتصافحوا ويتآخوا ويتعاونوا؟ أوليس فيه أيضا ثروة أدبية لآل الفاهوم؟

***

مصطفى الخطيب

صعد مفلح إلى أمام مضافة الشيخ مصطفى الخطيب في طيرة بلاد حارثة وكان الفجر قد بدأ يلوح فقرع الباب وكان الشيخ مصطفى نائما في المضتفة فقام مسرعا وفتح وهو يظن أن الطارقين فرسان درك لن هؤلاء لم يكونوا ينقطعون عن القرى في زمن الحرب. فلما رأى الخطيب مفلحا رحّب به وصافحه وقال: كفى الله شرك فما سبب قدومك على رجليك في الليل؟

مفلـح: افـرش لي واعلـق النـار للقهـوة وأقعـد أهـل البيـت ليخبـزوا لنـا رغيفـا، وأنـا أقـص عليـك. شـعر الشـيخ مصطفـى أنـه اسـتعجل بالسـؤال فاعتـذر للغسـاني وقـال: أنـا إنمـا سـألتك لأن مجيئـك في هـذا الوقـت ماشـيا أخافنـي أن يكـون هنـاك مـا يقلـق.

المسـألة لا تخلـو مما يقلق فأعد مـا طلبته وأنا أقص الحكاية عليك.

بعـد قليـل بـدأ مفلـح يحـكي حكايتـه للشـيخ الخطيـب مـن أولهـا إلى آخرهـا. ولكنـه لم يخـبره أن عبـد اللـه بـك أوصلـه إلى قـرب الطـيرة. وكان الشـيخ مصغيـا بكليتـه. فـما فـرغ مفلـح مـن حديثـه كان الطعـام قـد حـضر وصـارت القهـوة، فـأكل الضيـف وتقهـون فتجـدد نشـاطه. وقـال لمضيفـه: دع ابنـك يـسرج لي فرسـه ويرافقنـي ماشـيا إلى أول وادي البـيرة القريـب فيعـود مـن هنـاك راكبـا فرسـه وأنـا أسـتمر في طريقـي.

- ابنـي يرافقك إلى حيث تريد.

- كلا، فـإن المسـألة خطـرة ولا أريـد أن يعـرف ابنـك إلى أيـن أنـا ذاهـب حتـى إذا انكشـف أمـري لا يضطرونـه إلى الإقـرار عنـي.

بعـد برهـة كان مفلـح راكبـا فـرس الخطيـب، وكان ابنـه يسـير معـه في طريـق وادي البـيرة، فلـما وصـلا الـوادي ترجـل مفلـح وسـلم الفـرس إلى صاحبهـا وشـكره وقـال سـلّم عـلى أبيـك. فقـال الشـاب: دعنـي أوصلـك إلى عشـيرة البشـاتوة.

- كلا فأنا لا أريد الذهاب إليهم وأنت لا تهتم. كفيت ووفيت وقمت بما أردته منك ومن أبيك فعد مصحوبا بالسلامة.

***

أسعد الفاهوم

مشى مفلح مسيرة ربع ساعة وإذا بالشيخ أسعد الفاهوم على ظهر فرسه يتفقد زرع وادي البيرة فناداه مفلح فالتفت، وما كاد يتعرفه حتى عاد إليه مغيرا ولما بلغه شد رأس فرسه وترجل وقال: ما الذي أتى بك ماشيا؟

- لا تسل كيف أتيت ومن أين وإنما يهمك أن تعرف أن جمالا يشدد في طلبي وأنا أريد أن أتوارى.

أركب الشيخ أسعد مفلحا على فرسه وقال: أنا سأركب أول فرس نلاقيها، وما هي إلى دقيقة حتى أقبل بدوي على فرسه فقال له أسعد حول وأعطني فرسك وسأعيدها إليك في المساء.

الفصلُ الثَّاني والعشرون
علي الشّمالي

اجتـاز الخيـالان الغـور إلى إحـدى مخاضـات الأردن فقطعاهـا وأقبـلا عـلى خيمـة عـلي الشـمالي، وهـي خيمـة عـلى أربـع أعمـدة (مروبعـة) فلاقاهـما رجـال وحولوهـما وربطـوا الخيـل.

وكان قـد فـرش لهـما فجلسـا وأدريـت عليهـما القهـوة ثـم مـال الشـيخ عـلي الشـمالي وكان طاعنـا في السـن وضعيـف البـصر عـلى الشـيخ أسـعد الفاهـوم وقـال لـه: مـن خويـك؟

أسـعد: هو مفلح الغساني.

دعـا عـلي رجـلا وأسر إليـه كلمـة وإذا بـه يحـل فرسـا لصاحـب البيـت مـن أمامـه ويمتطيهـا فعلـم مفلـح أن الرجـل ذاهـب وراء الغنـم ليـأتي بذبيحـة.

فنهـض من مقعده ودعـا عليا وقال قل للخيال أن يقف.

فقـال علي للخيال سر في طريقك.

-بـل قـف والتفـت مفلـح إلى عـلي وقـال: عنـدي شيء هـام أقولـه لـك فمـره أن يقـف قليـلا حتـى تسـمع منـي.

فأمـر علي الخيال أن يقف.

فقال مفلح: أنا فار من وجه جمال باشا وإذا أكرمتني تنفتح الأعين علي ويصير الناس يتساءلون عني. فخير خدمة تقدّمها لي أن تبقي أمري مكتوما عن الناس وتعاملني كرجل عادي جدا.

أمر علي الخيال أن يعود فمسك مفلح بيد علي ومشيا إلى ضفة النهر وقص مفلح على علي حكايته وقال: أنا لاجئ إليك وسأبقى عندك أياما إلا إذا كنت تخاف أن تجيرني فأذهب إلى محل آخر. قل ولا تستحي.

***

مشروع الأصفر وعرفان الجميل

علي: أنت نبهتنا إلى خطر الصهيونية، وأنت قاومت مشروع الأصفر أو امتياز الجفالك الأميرية الأصفر الذي خفنا أن يكون صهيونيا، وأنت اتفقت معه كبريات صحف بيروت ولولا قومتك عليه وتنبيهك إلى خطره لنفذ سهمه فينا.

وأنت الذي حملت المرحوم سليم عبد الهادي على أن ينبهنا لنأخذ بناصركما فقاومت وإياه عزم الحكومة على بيع هذه الجفالك قبل الحرب وحرضتما العرب في بيروت ودمشق وحلب وبغداد على مقاومة هذا البيع حتى عدلت الحكومة عنه. فلولاك يا صاحبي لما بقينا بهذا الغور إلى اليوم. أفلا نأويك ونحافظ عليك من الظلم والغدر؟

سقطت دمعة من عيني مفلح لأنه رأى الوفاء العربي القديم مجسما في حديث الشمالي وارتاح للبقاء عنده أياما واتفق وإياه على القول أن مفلحا من بلاد حارثة وقد زعل من أقربائه وأتى يبحث عن أرض ليشد فيها فدانين.

***

الخطيب الأمي عزوز

ما كاد المقام يستقر بمفلح في خيمة علي الشمالي حتى بلغه أن عزوز الكردي خطيب الفريق الأمي سأل ناصريا كان في المقعد عن مفلح فأراد الناصري أن يبعد الشبهة عن مفلح وأجاب عزوز على سؤاله قائلا: هو خطيب يفتش له عن خطبنة.

***

لعب الفار بعبه

لعب الفار في عب عزوز وقال في نفسه: إن كان هذا الخطيب شاطرا والشيخ علي على ما يظهر يحترمه وقد أتى معه ابن الفاهوم، فلا ريب أنهم يعطونه مكاني. فعول على الدفاع عن نفسه بالفساد وقال لمحدثه: لا أعتقد أن حكاية هذا الخطيب نظيفة.

الناصري: وكيف؟

عـزوز: أراه كلـما لمـح إنسـانا قادمـا مـن بعيـد يصـير يتلفـت ويتلملـم، لا شـك أنـه يخـاف مـن شيء ولعلـه فـراري.

الناصري: لا يا شـيخ قم لنسـأله عن نفسه على حدة.

عـزوز: هو لا يقول لنا الحقيقة.

الناصري: من سـياق الكلام نفهم إن كان صادقا.

عزوز: تفضل.

وقـام الإثنـان وأومـأ النـاصري إلى مفلـح فتبعهـما صاغـرا وهـو لا يعلـم مـاذا يريـدان. جلـس الثلاثـة إلى جانـب «ربيضـة» عـلى بعـد بضعـة أمتـار عـن البيـت وقـال النـاصري لمفلـح: إن كنـت آتيـا في طلـب خطبنـة فالشـيخ عـزوو خطيـب هـذا الفريـق يسـتطيع أن يسـاعدك لأنَّـه خبـير بهـذه الديـرة.

مفلـح أدرك الـسر في هـذا السـؤال وقـال: لا يـا عمـي أنـا لسـت خطيبـا. أنـا رجـل أمـي وجئـت إلى هنـا عـلى أمـل أن أشـد لي فدانـين مـع الشـيخ عـلي شرط أن يـشرك بقـره مـع بقـري وأنـا اتـولى الإدارة، فـإذا كان الشـيخ عـزوز يسـتطيع أن يسـاعدني في هـذه المهمـة أعطيـه في البيـدر كيلـين قمـح عـلى كل فـدان مـن بقـري.

***

اطمأن بالله

انبسط عزوز وأبرقت عيناه لأنَّه اطمأن على خطبنته وطمع بأربعة أكيال قمح ورجا أن يكون هذا الفلاح في المستقبل واسطة خير بينه وبين علي وسائر عربان الفريق، فوعد أن يبذل جهده وذهب توا إلى علي وحدثه في الأمر.

***

علي وعزوز

فقال علي لعزوز: الرجل ضيف عندنا ودخيل علينا فنحن لا نبخل عليه بالأرض نعطيه إياها بلا قسم ليمضي سنته وليتصالح مع أهله الذين سوف لا يتركونه زعلان. ولكنه يصعب علي أن أشارك أحدا على بقري فليشدد لوحده.

عزوز: ولكنه يخاف من اعتداء رعيان العرب على مزروعاته.

علي: لا خوف عليه من هذا وعلى كل فسنفكر في الأمر.

***

مفلح والناصري

تخلف مفلح مع الناصري وقال: أمجنون أنت لتقول لهذا المسكين أني أدور على خطبنه وتدعه يرمينا في النار حرصا على خبزه.

الناصري: هي فلتة لسان والحمد لله على مداواتها بهذه الحكمة.

الفصلُ الثَّالث والعشرون
كبس بيت الشيخ محمود الطبري

كانت الحكومة بلغها خبر ذهاب مفلح إلى الغور فأرسلت كتيبة من فرسان الدرك تتعقبه، ولما كانوا يعلمون أن الشيخ محمود أفندي الطبري المعروف بالهيجاوي صديق حميم له وللشيخ شداد في قرية الباكورة أرسلوا الكتيبة لتكبسه فيها.

ما أحس الشيخ محمود ذات ليله بعد أن تعشى مع ضيوفه وجلسوا يشربون القهوة، إلا وكتيبة من رجال الدرك يحيطون بداره وبواريدهم بأيديهم، ودخل الضابط ومع بضعة أنفار إلى البيت

***

الشيخ والضابط

فاستقبلهم الشيخ محمود والضيوف وقال الشيخ: كفى الله شركم ما لكن عندنا في أول الليل؟ إن كنتم ضيوف فتفضلوا وإلا قولوا ماذا تريدون؟

الضابط: نفتش على صديق لك خائن للدولة.

محمود: لو كان لي أصدقاء خونة لما أخفيتهم عن الدولة.

- لك صديق تقدمه على أخيك.

- نعم لي صديق من هذا النوع هو مفلح الغساني.

- هـذا الذي نفتش عليه.

- ليس هذا بالخائن.

- ليـس مـن وظيفتنـا التحقيـق في هـذا وإنمـا هـي محصـورة في التفتيـش والقبـض عليـه حيـا أو ميتـا.

- ليس هو هنا.

- نحن نفتش.

- فتشوا كما تشاؤون.

ففتـش الضابـط وجنـوده بيـت محمـود وسـألوا في القريـة ثـم ذهبـوا وباتـوا تلـك الليلـة عنـد الشـيخ مشـوح اللبـون شـيخ صخـور الغـور. ولم يكتمـوا غرضهـم عـن مشـوح.

***

إنـذار العرب بعضهم بعضا

أرسـل الشـيخ مشـوح اللبـون يعلـم عمـه الشـيخ عـلي الشـمالي أن الـدرك فتشـوا الباكـورة عـلى مفلـح الغسـاني. ومشـوح لـو يكـن قـد علـم بعـد أن مفلحـا دخيـل عـلى عـلي ولكنـه أرسـل يخـبره مـن قبيـل الاحتيـاط.

خطبة علي

لم يشأ علي أن يخبر مفلحا بالأمر لئلا يزعجه، وكان الناس قد انصرفوا من السهرة وبقي مفلح وعلي وحدهما في الشق فقال علي لمفلح: أنت تعلم أن بيتي مطروق وفي كل ساعة يحتمل أن يحول علينا ضيوف وكثيرا ما يكونون من رجال الدرك، فالأفضل أن تبيت كل ليلة في خيمة أخرى. وفي هذه الليلة يحسن أن تبيت في خربوش صغير هناك لأحد العبيد، وأومأ بيده إلى الجهة المنصوب الخربوش فيها وهو منصوب بين الربيض ولا يرى مكانه أحد في الليل ولا النهار.

مفلح: متى نصبتموه في ذلك المكان؟

علي: قبل نحو نصف ساعة.

مفلح: إذا نصبتموه لأجلي فهل سمعتم أو شعرتم بشيء؟

علي: كلا ولكننا فعلنا هذا خوفا من حصول شيء فنقع في الندامة. يا شيخ مفلح؛ من حرص ما قرص.

مفلح: حسنا فعلتم. وقام وألقى عباءته على كتفه وتمشى مع علي إلى الخربوش المعد له فنام تلك الليلة على قطعة بساط وتغطى بعباءة خيشية وقام في الصباح نشيطا فتمشى على ضفة نهر الأردن إلى أو وصل إلى مكان منخفض فخلع ثيابه واغتسل وما كاد يطلع من الماءؤ حتى كانت الشمس قد ارتفعت وصارت أشعتها حارة.

مناجاة مفلح لنفسه

لبس مفلح ثيابه والتف بعباءته وتلثم فلم يبق من وجهه ظاهرا غير عينيه وأنفه وصعد إلى مرتفع وراء الوادي فأشرف على جانب من الغور ووقف يتأمل فيه وفي ما يمكن أن يصير بالعمران ثم أخذ يناجي نفسه قائلا:

لو لم أشتغل بكل قواي أولا ضد مشروع الأصفر حتى فتحت الأعين عليه وقام الشعب كله يطلب عدم إعطاء الامتياز للأصفر، وثانيا مع المرحوم سليم عبد الهادي والسيد عبد الله مخلص ورحنا نستنجد بالأستاذ محمد كرد صاحب المقتبس ونبلف صحف بيروت ورجال جمعية الإصلاح وأهل حلب والشام وبغداد ببرقية من الشيخ أسعد الشقيري إلى ناظر الداخلية بين له فيها المحاذير من بين الجفالك فخيل إلى الإصلاحيين والائتلافيين أننا تركناهم ورحنا ننضم مع الأستاذ الشقيري إلى الاتحاديين فقاموا كلهم بصوت واحد ينصروننا ويطالبون بعدم بيع الأراضي المدورة حتى اضطروا الوالي بكر سامي أن يأتي بناء على أمر الداخلية ويخيم في الغور ويجمع عشائره ويعلنهم أن الحكومة لا تنوي بيع الجفالك الأميرية ولا أن تستبدلهم بسواهم.

استعرض مفلح هذه الحوادث كلها وقال في نفسه: لو أعطي امتياز الغور للأصفر أو لو بيع في أوائل سنة ١٩١٤ من أين كنت أجد الشمالي وغيره يهتمون بي ويعرضون بأنفسهم للخطر من أجل سلامتي ويقدرون لي جهادي في سبيل استبقاء الغور لهم.

أمـا كان الغـور وسـاكنوه غريبـين عنـي يسـلمونني إلى الحكومـة إذا عـثروا عـلي وعرفـوني؟ ألـق خبـزك عـلى وجـه المـاء تجـده بعـد حـين.

***

ماذا كانت تدبر السياسـة

لم يكـن يخطـر لمفلـح يومئـذ ببـال أن التدابـير التـي االتخذهـا مـع أعوانـه لتنبيـه بـيروت والشـام وحلـب وبغـداد إلى الانتصـار لمزارعـي الجفالـك سـتكون منبهـا مـن الجهـة الأخـرى للسياسـة المقبلـة فتعمـل عـلى تجزئـة بلـدان العـرب فـلا تشـد الواحـدة منهـا أزر الأخـرى ولا خيـل إليـه أن الإنجليـز آتـون وقـد قلـدوا أعناقهـم إثـم مسـئوليات السياسـة الصهيونيـة، وأنهـم سيسـهلون انتقـال أراضي المـرج والغـور إلى أيـدي الصهيونيـين وأنهـم سـيعزلون فلسـطين عـن إخوانهـا ويحكمونهـا بالخـراب والبنـادق والطيـارات لا بالعـدل البريطـاني المشـهور الي عـلى رغـم كل مـا سـمعنا عنـه لم نتذوقـه.

***

العدل البريطـاني مربوط بقانون منع الجرائم

وقـد قـال ؟أحـد العارفـين عـن العـدل البريطـاني أنـه موجـود ولكنـه محكـوم عليـه بقانـون منـع الجرائـم في سـبيل إنقـاذ الجفالـك وإلى مـا كان يـراه مـن وفـاء قومـه، فقـال في نفسـه أن أمـة فيهـا مثـل عبـد الفاهـوم وعـلي الشـمالي أخلاقهـا تسـيج عليهـا وتحمـي وطنهـا ولكـن الأخـلاق تفسـد اليـوم.

الفصلُ الرَّابع والعشرون

الجاسوسان

وصلت الغور عن أنه قبض على شابين وظهر أن إحدى الدوارع الإنجليزية أنزلتها على الشاطئ بحيفا وقبض بسببهما على أناس من المسيحيين بحيفا وعلى كثيرين من الناصرة وأهينوا وعُذّبوا فاضطربت الناصرة ودب الخوف في قلوب الناس واستولى عليهم الرعب.

***

خالد بك وخليل رفعت بك

ولكن القائمقام خالد بك رأى أن الوشاة الذين كان المرحوم الشيخ وجيه زيد يقطع عليهم الطريق وجدوا لهم بسفرة إلى أمريكا بابا مفتوحا فولجوه وأخذوا يمثلون مع رجال التحقيق من الجيش دورا خطيرا فاتهموا كثيرين من الأبرياء وصار المحققون يجلبونهم ويعذبونهم ويضربونهم ويهينونهم، فبعث القائمقام بطلب إرسال محقق خاص لهذه المسألة، فأرسل جمال باشا الصغير مستشاره العدلي خليل رفعت بك وكان هذا الشاب نزيها وعاقلا وجريئا، فجاء إلى الناصرة واجتمع بخالد بك قائمقام القضاء وفهم منه الوضعية وأخذ معلومات وافية عن الوشاة الذين اتخذوا حادث الجواسيس فرصة للإيقاع بالناس.

ثم تولى التحقيق بنفسه فأفرج عن كثيرين ممن ظهرت براءتهم ولكنه اضطر إلى سوق بعض الوجهاء إلى الديوان العرفي في الشام بسبب

افخباريات والشهادات السرية بحقهم على رغن قناعته ببراءتهم. وقد كان واثقا من أن الديوان العرفي سيبرئ ساحتهم.

سكتت الحالة نوعا بهذا التحقيق النزيه الذي تمشى عليه خليل رفعت بك وخالد بك القائمقام واطمأن بعض الذين بلغت مسامعهم إشاعات أن الوشاة وشوا بهم والذين كانوا يحتقرون الوشاة لنهم خافوا منهم أن يغتنموا الفرصة للنكاية بهم. والتجار الذين كانوا يرفضون أن يتساهلوا مع الوشاة ويعطوهم ما يريدون بالدين الذي لا يوفى. هؤلاء تمنوا لو رجع الوشاة إليهم ليعطوهم ما يريدون ولكن العقلاء منهم قالوا سلمت الجدرة في هذه المرة، ترى هل تسلم في كل مرة؟. فإذا اتفق أن حادثا آخر حدث وكان غير خالد بك قائمقاما وجاء غير خليل رفعت بك محققا فماذا يفعل الوشاة بالأبرياء؟ ألا يجب أن تنتبه وتتخ التدبير لجعل الوشاة والنمامين يستصغرون نفوسهم ويحتقرون أعمالهم ولإنقاذ الإبرياء من وشاياتهم حتى يتقلص ظل الوشايات.

***

بعضها برقاب بعض

ما كان التحقيق يفرغ من هذا الحادث الذي فجعت به الناصرة وهي بريئة منه حتى اكتشفت شبكة جاسوسية أخرى.

الحمامة الزاجل

قيل قبض على حمامة زاجل تحمل بطاقتين تحت جناحيها إلى الإنجليز أو منهم، فاتهم مروجوا إشاعات مفلحا بها ومفلح يبرأ إلى الله من الجاسوسية براءة الذئب من دم ابن يعقوب لأنه لا يجيز في شرعه التجسس لبلاده على أعدائها ليجيزه للأجانب على حكومة بلاده وهو يعتبر التجسس من حيث هو عملا غير شريف.

***

ظهور النظام الجاسوسي

ولكن التحقيق أظهر أن هناك نظاما جاسوسيا قائما في المستعمرات الساحلية اليهودية، فقبض على كثيرين من اليهود المتهمين وقتلت سيدة يهودية نفسها لما علمت أنه سيقبض عليها وقيل إنها فعلت ذلك خوفا من أن تضطر إلى الإعتراف إذا شددوا في تعذيبها.

وقتل يهودي نفسه في سجن التوقيف بالناصرة وسيق عدد كبير يزيد على المئة من المقبوض عليهم إلى الديوان العرفي بالشام وشنق اثنان منهم ثبتت عليهم التهمة.

***

مفلح يناجي الطبيعة

اتصلت أخبار هذا النظام الجاسوسي بمفلح فأثرت على نفسه تأثيرا مؤلما وقال الله الله ما أعجلك أيتها الطبيعة في كثير من الأحيان في الانتقام لنفسك ممن يسيئون إليك بمخالفة نظمك.

نسي الاتحاديون أن العرب والترك شرقيون وأنهم من دين واحد ومصالحهم مشتركة ولكي يتخلص الترك من مساواة العرب لهم صاروا يعملون على إضعاف العرب وتساهلوا في إدخال عنصر غريب عليهم بدلا من أن يساووهم بأنفسهم ويتضامنوا معهم على مقاومة مصائب الدهر. أما أنت فما نسيت أن هذا عمل غير طبيعي فجعلت هذا العنصر الغريب الذي أدخله الأتراك على أنفسهم وعلى العرب يتجسس لأعدائهم ويحاربهم في صفوف أولئك الأعداء، كما أنك لم تنس أن فريقا من العرب رفع راية الثورة على الترك فتركه لينال جزاءه من الاستعمار على أيدي الذين خدعوه من أمرائه وأشرافه ومنّوه بالاستقلال.

***

تشديد الطلب

أحدثت حوادث الجواسيس هيجانا في أعصاب رجال الجيش المسؤولين وقد عرف الوشاة السياسيون والشخصيون الأدنياء هذا فأكثروا من الدنس على مفلح وشدد القومندان العام في طلبه من حكومة الولاية وهذه بدورها صارت تشدد على متصرفية عكا وقائمقامية حيفا.

ففي ذات ليلة زار فريق الشمالي وفريق صخور الغور وفريق الشخيمات من البشاتوه ثلاث شراذم متتابعة من الدرك للتفتيش عن مفلح ولم يكونوا يسألون عنه لئلا يتنكر ويهرب إذا عرب أن التفتيش عليه. وكان هو نائما مطمئنا في «خربوشه».

***

خوف مفلح

قام مفلح ثاني يوم فسمع العرب يتحدثون عن زيارة رجال الدرك لهم ثلاث مرات فقال في نفسه: ما حمدت الله على خلاصي من أيدي حامد بك قائمقام حيفا العاتي وعلى خروجي من الناصرة قبل ظهور مسائل الجواسيس وتنبه الخواطر لألقي بنفسي بين أيدي الدرك فيعذبونني قبل وصولي إلى مراكز الحكومة. يجب أن أغادر هذا المكان.

الفصل الخامس والعشرون

علي يخاف على مفلح

أرسل مفلح يطلب عليا إلى إحدى الخيم لأنه لم يشأ الذهاب إلى خيمته التي يكثر فيها الزائرون وقال له: أظن البقاء عندك صار خطرا جدا فأوفق لي أن أذهب.

علي: إلى أين تذهب؟

مفلح: إلى عند عبد الله الحسين شيخ الصقر.

- عبد الله الحسين رجل خير ولكنه يحب مسايرة الحكومة وقد بلغني أن أحد وجهاء الناصرة طلبه وكفله بناء على تكليف قائمقام حيفا أن يفتش عنك وإن كان البدوي لا يبوق دخيله وعبد الله الحسين من أشراف العرب ولكن التعرّض للخطر غير محمود العواقب.

- أنا أذهب إلى الأمير بشير الغزاوي.

علي: بيني وبين شر الأمير بشير الله هو أميرنا ولكن طارش الناصرة عليه كثير وأهلها يعرفونك وتخاف من ابن حرام ثرثار أن يذكر اسمك حيث يجب ألا يُذكر.

إلى خيمة ابن علوان

مفلح أطرق قليلا وقال: إذن أذهب إلى طيبة ابن علوان التابعة لقضاء إربد.

علي: ومن تعرف فيها؟

مفلح: أعرف الشيخين حسن عبد الوالي وهزاع العمر.

علي: ولكن الطيبة اليوم مركز جمع إعاشة ومركز جمع حطب ولذلك يكثر فيها رجال الدرك وخصوصا في بيت حسن لأنه مطروق وفوق ذلك ففريق من بني صخر تخاصموا مع رجال الدرك وقتلوا واحدا أو اثنين منهم والحكومة تطاردهم وتكبسهم من حين إلى آخر والطيبة مخزنهم يخزنون فيها قمحهم وسمنهم وحوائجهم|، فوجودك في الطيبة لا يخلو من الخطر. أنا أعتقد أن بقاءك عندنا أسلم.

مفلح: دعني أغير المكان فإذا تعبت أعود وعلى كل فالطيبة واقعة في متصرفية حورا وتابعة لولاية سوريا وهناك لا يعفون عني كثيرا.

علي: إذن انزل في بيت هزاع وادع حسن إليه.

ثم دعا علي أحد رجاله وقال مفلح يا بوي لا يحب ديرتنا وينوي أن يشد بقره عند جيراننا بالطيبة. عدد على فرسين وأوصله لأنه لا يعرف الطريق وأنت ترجع الخيل.

ركـب مفلـح ورفيقـه وسـارا مسـيرة نحـو ثـلاث سـاعات أو أكـثر قليـلا فوصـلا إلى الطيبـة وذهبـا تـوا إلى بيـت هـزاع العمـر فرحـب هـزاع بمفلـح كثـيرا وظهـر أنـه علـم بحكايتـه وقـال كان قلبنـا مثـل النـار عليـك والحمـد للـه الـذي سـاقك إلينـا ولم يحتـج مفلـح إلى أن يقـول كثـيرا لهـزاع عـن نفسـه بـل قـال لـه أرسـل وادع إلينـا ابـن عمـك الشـيخ حسـن عبـد الـوالي إلي سرا.

هـزاع نـادى أخـاه الأكـبر واسـمه مطـر عبـد الـوالي وقـال: اذهـب يـا مطـر ونـاد عمـك حسـن ولا تقـل لأحـد أن مفلحـا عندنـا.

***

مفلـح عندنا لا تقل لأحد

ذهـب مطـر إلى بيـت حسـن لينـاديـه وكان كلـما صـادف أحـدا في الطريـق مـن أهـل القريـة يقـول تعـال لأقـول لـك.

مـاذا؟ مفلـح الغسـاني عندنـا هـارب مـن وجـه جـمال باشـا لا تقـل لأحـد! وهكـذا إلى أن وصـل إلى بيـت حسـن وأخـبره فقـال لـه حسـن اسـبقني وقـل لهـم هـا أنـا آت. عـاد مطـر وأخـبر وهـو عائـد أيضـا مـن صادفـه بقـدوم مفلـح

مـا وصـل مطـر إلى البيـت حتـى كان قـد امتـلأ بالنـاس الآتـين ليتعرفـوا عـلى مفلـح لأنهـم جـيران الغـور وقـد سـمعوا عنـه كثـيرا مـن جهـة، ولأنـه خـدم حـين عبـد الـوالي خدمـة سـاعدت عـلى خلاصـه مـن تهمـة كاذبـة بجنايـة.

قـام مفلـح واسـتدعى هـزاع وقـال لـه مـا هـاذا؟ فقـال هـزاع: سـود اللـه وجـه مطـر فهـو لا يكتـم سرا.

مفلـح: نحن أمام أمر واقع.

هـزاع: هـون عليـك ولا ترتبـك ومتـى جـاء حسـن نتعـشى ونـصرف الضيـوف ونتدبـر أمرنـا.

***

العشاء

تعـشى مفلـح في بيـت هـزاع العمـر مـع الشـيخ حسـن عبـد الـوالي ووجـوه القريـة الذيـن جـاؤوا للسـلام عليـه وشربـوا القهـوة وتحدثـوا قليـلا ثـم بـدأ مفلـح يتناعـس فقـال الزائـرون بعضهـم لبعـض الضيـف تعبـان لنتركـه يرتـاح. وقامـوا كلهـم وودعـوا وانصرفـوا.

***

إلى أين يذهب

جلـس مفلـح وحسـن وهـزاع معـا وقـص عليهـم مفلـح حكايتـه باختصـار وختمهـا بقولـه: جئـت لتـوارى عندكـم أيامـا فحـدث مـا حـدث وعرفـت بي القريـة كلهـا حتـى صـار بقـائي متعـذرا فهاتـوا مـا عندكـم مـن آراء لنفكـر فيـما نعمـل.

حسـن: أتريـد أن تذهـب إلى عنـد الشريـف فيصـل في قريـات الملـح؟ نحـن مسـتعدون لنرافقـك مـع بعـض فرسـان الجبـور مـن بنـي صخـر.

هـزاع: وإذا أردت الذهـاب مـع الجبـور إلى البريـة فنحـن مسـتعدون لتعريفـك عـلى بعـض شـيوخهم فتقيـم عندهـم عـلى الرحـب والسـعة إلى أن يفرجهـا ربـك.

مفلح: وأين الجبور؟

هـزاع: هـؤلاء قتلـوا اثنـين مـن رجـال الـدرك فأصـدر جـمال باشـا والـوالي أوامـر مشـددة بتعقبهـم فرحلـوا إلى البريـة، وإذا ذهبـت إليهـم تكـون في أمـان مـن الحكومـة. نحـن لنـا منهـم أصدقـاء أوفيـاء وبيننـا وبينهـم حقـوق متبادلـة وهـم يعتـبرون دخيلنـا دخيلهـم فـلا يفرطـون بـك بـل يحافظـون عليـك ويفدونـك بدمائهـم.

مفلـح: لـو كنـت أريـد مغـادرة سـوريا لغادرتهـا وانضممـت إلى العـرب بقيـادة فيصـل ولكننـي أفضـل أن أسـلم عـلى مغـادرة البـلاد لئـلا يُقـال عنـي جاسـوس وأنـا ممـن يحتقـرون هـذا الاسـم كثـيرا فـلا أريـد أن يلقّبنـي بـه أحـد.

حسـن: إذن اذهب إلى البرية.

مفلـح: لا لا أغادر البـلاد إلى حيث تنقطع عني الأخبار.

حسـن: ومـاذا يهمـك مـن الأخبـار؟ يجـب أن تهمـك السـلامة وكلـما ابتعـدت كانـت السـلامة أضمن.

مفلـح: أنـا ا أريـد أن يسـمع أني خجـت مـن البـلاد لئـلا أتهـم بالخيانـة أولا ولئـلا يضيـق عـلى أصدقـائي وأهـلي بسـببي ثانيـا.

حسن: أتذكر المقمى؟

مفلـح: من هو المقمى؟

حسـن: رشـد الـسردي وشريكنـا في الغنـم الـذي سـاعدتني وإيـاه يـوم كنـا متهمـين بجنايـة.

مفلح: نعم أذكره.

حـين: هـذا كان نـازلا مـع الجبـور ولمـا بـدأت الحكومـة تطاردهـم رحلـوا وانفـرد هـو في الهيـش فيمكنـك أن تنـزل عنـده وتنقـل بيتـه إلى حيـث تريـد.

مفلـح: أبعيد هو من هنا؟

هزاع: مسـيرة نحو ساعتين.

مفلـح: هل الطارش عليه كثير؟

حسـن: لا أبدا هو بعيد عن الطرق.

***

إلى رشد السردي

مفلح: إلى المقمة إذن.

هـزاع: شـدوا لنـا عـلى راسـين خيـل يـا عيـال وقـام حسـن وعـاد إلى بيتـه وركـب فرسـه وأتى ببارودتـه، ومـا هـي إلا دقائـق حتـى عـاد. وكان مفلـح وهـزاع قـد ركبـا وخرجـا مـن الـدار فمـشى الثلاثـة تحـت جنـح الظـلام إلى الهيـش حيـث كان المقمـى مخيـماص ولمـا قربـوا مـن البيـت أخـذت كلاب المقمـى تنبـح فتنبـه هـو وقصـيره وهـو رجـل شـيخ فقـير اسـمه أبـو خـروف كان أجـداده مـن أمـراء الجبـور في بنـي صخـر، وقامـا إلى بواريدهـما ولمـا دنونـا منهـما صـاح المقمـى وايـش الـزول؟

حسن: صاحب.

الفصلُ السَّادس والعشرون
استقبال بدويّ

المقمـى: يا هلا يا هلا.. من خويانك؟

حسـن: هزاع وضيف عزيز عليك.

المقمـى: يـا هـلا بالضيـوف. وتقـدم مـع قصـيره والأولاد ومسـكوا بـرؤوس الخيـل وحولونـا عنهـا وقامـت الحريـم وبـدأت تفـرش شـق الخربـوش، ثـم سـأل المقمـى حسـن قائـلا: خـير إن شـاء اللـه ومـا الـذي أتى بكـم في هـذه الليلـة.

حسـن تقـدذم وأخـذ بيـد المقـم ومـشى وإيـاه وأسر في أذنـه كلـمات وإذا بالمقمـى يعـود إلى مفلـح ويقـول: هـات يـدك يـا سـيدي لأقبلهـا. فشـكره مفلـح وسـحب يـده فقـال المقمـى: يـا سـاعة الرحمـن بـك. اللـه مـا أبـرك هـذه السـاعة. الحمـد للـه الـذي سـاقك إلينـا لنسـدك الدينـة التـي لـك علينـا.

مفلـح ارتـاح لسـماع هـذا الحديـث الـذي يـدل عـلى مبلـغ وفـاء البـدوي سـاكن البريـة وقـال لرشـد: لا حاجـة إلى هـذا فأنـا ضيفـك إلى أن يفرجهـا اللـه.

رشـد: مرحبا بك طول ما أنا طيب.

الوداع

تعانق حسن وهزاع مع مفلح وبكيا وودعا وانصرفا وقال حسن لرشد وديعتك الغساني فاعمل بأصلك.

رشد: لالا يا حسن ما حست إني محتاج إلى هذه التوصية منك. مفلح بعيوني.

مفلح: بارك الله بك يا أخا العرب.

أعمل حسن وهزاع الركب في شواكل جواديهما ليصلا إلى الطيبة قبل الصباح فلا يدري بأمرهما أحد، وتركا لمفلح الفرس التي ركبها ليستعملها إذا احتاج إليها وإلا فرشد يعيدها إلى القرية.

***

القهوة وأبو خروف

أعلق رشد النار وطبخ طبخة قهوة لمفلح، فشرب وإياه وأبو خروف قصير وكان أبو خروف شيخ يناهز الثمانين طويل القامة رقيق الجسم أسمر اللون أبيض اللحية عليه بقايا المهابة.

لم يتكلم في تلك الجلسة ولا كلمة ولكنه كان ينظر إلى مفلح من حين إلى آخر نظرات تأمل ودرس.

أراد رشد أن يذبح لضيفه فمنعه مفلح وباتوا تلك الليلة وكانت حملان الغنم والجديان في كل دقيقة تدوس على مفلح وعلى فراشه.

يرعى الغنم

قام مفلح في الصباح فوجد نفسه في غابة من السنديان فسرح نظره فيما حوله فما كان يرى سوى شجر البلوط. وكان قطيعا الغنم والمعزى لأبي خروف ولرشد المقمى السردي منتشران أمام خربوشي صاحبيهما، والنساء يحلبن الوالدات منها وكان الهواء عليلا عليلا يحدث حفيفا رقيقا لذيذ السمع إذ يمر بورق السنديان.

***

دهشة الصغار

أقبل أولاد الفريق الصغار على مفلح يتفرجون عليه ويتفحصون حاله وقد لحظ أنهم استغربوا شكل سلطته. لأنها غير السلطات التي يلبسها البدو فوق ثيابهم، واستغربوا لباسه تحت القمباز بدلا من القميص الطويل.

واستغرب رشد من مفلح كيف نهض في الصباح وراح يطوف حول البيت ويتفرج لأن العادة عند العرب أن يقوم الضيف فيأتون له بالماء فيغسل يديد ووجهه ويجلس على فراشه إلى أن يشرب القهوة.

رشـد ومفلح يقرران الموقف

ذهـب رشـد إلى مفلـح وقـال: تفضـل اجلـس ريثـما تـشرب القهـوة ويخبـزون لـك رغيفـا فتفطـر.

قـال مفلـح لرشـد: اجلـس. وجلـس الاثنـان القرفصـاء. أطـرق مفلـح قليـلا ثـم رفـع رأسـه ونظـر إلى رشـد وقـال: لقـد علمـت أني أتيتـك لأتـوارى لا خوفـا عـلى حيـاتي ولكـن لأني أريـد أن أعيـش لأولادي ولوطنـي المهـدد بخطـر الاسـتعمار الصهيـوني. واللـه يعلـم مـاذا أيضـا. ولذلـك أنـا لسـت ضيفـا ولا أريـد مراسـم. أنـا أريـد أن أرعـى غنمـك.

رشـد: أسـتغر اللـه.. أنـت ترعـى غنمـي؟! أنـت ضيفـي.. أنـت سـيدي وأنـا أخدمـك وأحافـظ عليـك بعيـوني.

مفلـح: إني عـلى يقـين مـن مـكارم أخلاقـك ولكـن المحافظـة عـليّ تقـضي بـأن أرعـى غنمـك – وكان مفلـح يتكلـم بلهجـة التصميـم الـذي لا يقبـل الجـدل- .. أنـت تذهـب معـي اليـوم وتعلمنـي طريقـة الرعـي ومـن ثـم أكتفـي بـأن آخـذ ابنـك الصغـير وأنـا أكفـل لـك أن الغنـم لا ينقصهـا شيء مـن العنايـة.. هيـا بنـا وأنـا أراقبـك لقـوم مقامـك في الغـد.

إلى الرعي

قام رشد وتناول جرابا صغيرا ووضع فيه أرغفة كانت قد خبزت على الصاج وحمل عصاه وصاح: هر هر.. فعرفت الغنم صوته وأخذ دليلها يتمشى إلى جهته وهي تتبعه فمشى أمامها. وقام ابنه الصغير يسوق المتخلف منها ومفلح يتفرج.

سار الموكب الطبيعي الهوينا في جهة معلومة وكلما وصل أرضا خصبة كان يقف قليلا لترعى الغنم. بقي رشد على هذه الحالة نحو ثلاث أو أربع ساعات حتى انحدر إلى مسيل الطيبة في واد عميق ينتهي بالغور.

ما أبصرت الغنم السيل حتى تراكضت وأخذت تشرب ولما شبعت رجعت إلى جانب النبت لتتظلل به فهجعت.

***

شجرة الدفلى وفلسفة رشد

أما مفلح فرأى شجرة دفلى في وسط المسيل فخلع حذاءه وتمشى إليها وأخذ يفحصها ورشد يراقبه ثم عاد فسأله رشد ماذا أردت بشجرة الدفلى؟

- لي فيها مآرب.

ذهب مفلح ورشد إلى جانب شجرة واتكأ وذهب الولد إلى جانب شجرة أخرى في الجهة الثانية من الغنم واتكأ أيضا.

وبعد ساعة تغديا واستراحا قليلا ثم قام رشد وصاح بالغنم «هر هر هاو هاو» فقال الدليل وتمشى نحوه فتبعته الغنم، وقام الولد يقيم الكسالى منها ويسوقها فأخذا رشد في طريق آخرى يرعى مدة ساعتين ثلاث حتى وصلوا إلى البيت وهناك انتهت مهمة الراعي في ذلك اليوم.

- رعي الغنم ليس بالأمر الصعب ولكن ظهر لي أن رعي المعز متعب.

قال رشد: أتدري يا شيخ مفلح، الغنم تتبع دليلها مثلنا العرب – نحن نتبع شيخنا والمعزى مثلكم يا أهل المدينة كل واحد منكم رأس يعمل على كيفه.

أعجب مفلح بفلسفة رشد وقال: ولعل هذا السردى من سلاسة الفيلسوف ابن رشد.

***

مفلح ضيف

ما كاد مفلح يصل مع الغنم حتى قام النساء وفرشن له في الشق الصغير وأعلقن النار للقهوة. سُرّ مفلح لأنَّه يحب القهوة العربية المرة ولكنه كان يفضل الجلوس على (الحماد) على الأرض الحمراء خارج البيت فهي أنظف كثيرا من الفراش. وقد رأى رشد ألا يجادل مفلحا فيما يرد فجاء وأبو خروف وجلسا معه وشربوا القهوة، وكان أبو خروف يراقب حركات مفلح بانتباه في تلك الليلة.

عرف مفلح واجبه

صار مفلح كل يوم يقوم من الصباح ويرعى غنمه وصار رشد شيخ. يلبس كل صباح هدومه، ويشد مركوبه ويحتزم ويذهب إلى الطيبة فكأنه أخذ بوجود مفلح فرصة.

***

مفلح وأبو خروف

ائتلف قلبا أبو خروف ومفلح فصارا كل مساء يتبطحان على عبيهما على الحماد ويأخذ أبو خروف يقص على مفلح من نوادر العرب الجميلة التي كان يمكن تأليف رواية من كل قصة منها لو كان في استطاعة مفلح أن يدونها.

***

مفلح وهدومه

وصار مفلح كل ثلاثة أيام يأخذ صابونة من بيت رشد وبعد أن يصل إلى المسيل وتشرب الغنم وتقيل، يدخل شجرة الدفلى فيخلع ثيابه فيها ويغسلها في الماء وينشرها ويغتسل هو فتنشف الهدوم قبل أن يسرح بالغنم ثانية، وهكذا حافظ مفلح على شيء من النظافة مدة ٢٦ يوما كان يرعى فيها الغنم ويبيت في بيت الشعر عند راع.

الضيوف

في ذات ليلة إذ كان مفلح وأبو خروف جالسين يتحدثان سمعا وقع حوافر فقال مفلح لأبي خروف: أخشى أن يكون الدرك آتين لتعقيب الجبور، دعني أتوارى. وقام وتوارى ولكن الخيل كانت من الجبور وكان معهم ابن لشنوان العجل. فقال هذا لرشد بعد أن استوى به المقام وشرب القهوة: سمعت أن عندك ابن الغساني.

العجلي: عندك ضيف هو من الغسانيين تخبي علي ليش؟

رشد: قلت لك ما عندي حد وتضل تنشد ليش؟

العجلي: الغساسنة لهم عند أبوي يوم من أيام العرب وأنا أريد اليوم أن أسدهم وأنت يا خوي يا رشد تعطل علي ليش؟

رشد: بالله احكي لنا حكاية يوم الغساسنة عند شنوان والدك.

الفصل السابع والعشرون
شـنوان العجل وسليمان الغساني

قال ولد شـنوان: هذه حكاية والدي شـنوان العجل مع سـليمان الغساني.

غـزا والـدي مـع رجالـه مـرة عـلى حسـب عادتـه فالتقـى بغـزو آخـر في الطريـق فتصـادم الغـزوان واقتتـلا، فـدارت الدائـرة عـلى والـدي ورجالـه فهـرب بعضهـم وقتـل البعـض الآخـر. أمـا والـدي فسـلب الغـزو فرسـه وبارودتـه وسـيفه وجـردوه مـن ثيابـه وتركـوه. فعـاد ماشـيا عـلى رجليـه وكمـن في خلـوة إلى أن أرخـى الليـل سـدوله فجـاء إلى قريـة الحصـن وأخـذ يتسـلل في شـوارعها يوتـدارى بحيطانهـا حتـى دنـا مـن بيـت كان فيـه جمهـور مـن النـاس سـهرانين فوقـف قـرب الحائـط خـارج المضافـة إلى أن مـر بـه رجـل فأبـصره ودخـل وأخـبر صاحـب البيـت عنـه فخـرج صاحـب البيـت وسـأله عـن نفسـه فقـال: أنـا شـنوان العجـل وقـد ذهبـت إلى الغـزو فلاقـاني غـزو. ودونـك كيـف تركـوني. وكان شـنوان عريانـا تقريبـا.

دخـل صاحـب البيـت للحـال وأتى بثـوب وعبـاءة قلبهـما شـنوان ودخـل المضافـة ومـا قـال السـلام عليكـم حتـى انتصـب الجميـع عـلى أرجلهـم وقالـوا: أهـلا حيـا اللـه شـنوان.. فصافحهـم واحـدا واحـدا وأجلسـوه في الصـدر إكرامـا لبطولتـه التـي لا تعيبهـا كـسرة في نظرهـم.

وسـألوه عـما جـرى لـه فحدثهـم بأمـره. فالتفـت بعضهـم إلى صاحـب دكانـة كان سـهرانا معهـم، وطلبـوا منـه هدومـا لشـنوان، وكان هنـاك ضيـف غريـب فقـال لصاحـب الـدكان: هـات لي عبـاءة، وكوفيـة حريريـة وقنبـازا

حريريا. ولما جاءت هذه الهدية قال الضيف: خد هذه يا شنوان ونقده معها خمس ليرات عثمانية لمشترى بارودة.

فأخذها والدي وقال مكثور الخير يا ضيف الرحمن علمنا بروحك.

قال الضيف: أنا غريب ديرة.

فألح والدي عليه وقال: من العار أن آخذ عطية ولا أعرف المعطي لأشكره وأسده حين الاقتضاء.

قال الضيف: أنا سليمان الغساني من لبنان.

فقال والدي: حياك الله من أين كنت.

وبعد ذلك مرض سليمان في الحصن وأشار الحكيم بنقله إلى الناصرة، وكانت الطريق من الحصن إلى الغور مخطرة فأرسل مضيف سليمان إلى والدي يخبره بالأمر فجاء والدي مع اثنين من رجالنا ليلا وأركبوا سليمان فرسه وأوصلوه بكل عناية واهتمام إلى الناصرة بعد أن قسموا الطريق إلى مراحل قصيرة ووضعوه في المستشفى، وأقام والدي عنده يومين حتى زال الخطر. وقد حدثنا والدي بهذه الحكاية وأوصانا أن لسليمان الغساني عندنا يوم يجب أن نسده له أو لأحد من الغساسنة.

وكان مفلح يسمع هذا الحديث فقال لابن شنوان: أنت ابن شنوان العجل؟

فأجاب الشاب: نعم أنا هو.

مفلح: وأنا مفلح الغساني وسليمان عمي أخو أبي.

فقام ابن شنوان ومسك يد مفلح وأراد أن يقبلها لأن مفلح كان كهلا وابن شنوان فتى. فقبله مفلح وشد يده ولم يدع يقبلها.

ابن شنوان: يا عميمي ألا ذهبت معي وأقمت عندي في البيت إلى أن يفرجها الله عليك وأمي العجوز تخدمك وأنت صاحب البيت؟

مفلح: الله يوفقك أيها العربي الأصيل الكريم، والله لو كان بإمكاني مغادرة هذه الديرة لما اخترت غير الذهاب معك ليس لأن لعمي سابقة عند أبيك فسابقة عمي وفاها أبوك مضاعفة، ولكن لأني أرى فيك ذلك العربي الوفي المخلص المحافظ على التقاليد الطيبة. فبورك في البطن الذي حملك والعشيرة التي أنت منها.

ابن شنوان: دخيلك يا عميمي اجبر بخاطري وتعال معي ودعني أفاخر بك بين أهلي وعشيرتي.

مفلح: والله يا ابن شنوان ما كنت لأتأخر عن مرافقتك لأفخر أنا بك لولا خوفي من أن تؤذي الحكومة أهلي وأصحابي الذين صنعوا معي معروفا في محنتي. أرغب أن أبقى قريبا حتى إذا بلغني أنها ضيقت عليهم أبادر إلى تسليم نفسي لتفرج عنهم.

حنى ابن شنوان رأسه أمام هذا الجواب وقال: ربي لا تخطئ رؤوس العرب من النخوة والمروءة.

تعشى إبن شنوان مع رفاقه وشربوا القهوة وركبوا خيولهم وانصرفوا ليلا.

الفصل الثامن والعشرون
عيشة البساطة السعيدة

اطمأن مفلح وارتاح لرعي الغنم ولمعاشرة رشد وأبو خروف، ولما رآه من وفاء إبن شنوان العجل، وكان يتمنى لو يرجع العالم إلى مثل هذه البساطة السعيدة البعيدة عن المدنية وأطماعها ومشاغلها وكلفتها ومتاعبها ومثقلاتها ودسائسها وكذبها ووشاياتها.

وكان صاحباه حسن عبد الوالي وهزاع يورانه في كل أسبوع مرة.

***

القمل من يلدك

بقي مفلح على هذه الحال السعيدة ٢٦ يوما ولم يكن يزعجه شيء إلا التفكير فيما يمكن أن يكون حل بأصحابه الذين ساعدوه في محنته وآووه في بيوتهم. وكثرة القمل الذي كان يأكل جلده. فقد قال مرة لرشد السردي: دونك يا رشد الحماد نظيف والهواء طيب والشمس ما شاء الله عنها وحبال البيت مشدودة قل للحريم أن ينشروا الهدوم على الحبال تتشمس وتتهوى.

رشد: وليش يا أخوي؟

- تنظف من القمل.

- القمل ما هو من الهدوم.

- القمل من أين؟

- القمـل من يلدك «جلدك».

ضحـك مفلـح لهـذا الجـواب ولم يـرد عـلى رشـد لأنـه علمـك أنـه مـن الصعـب عليـه أن يغـير قناعتـه السـاذجة.

***

يوم القيلولة

وفي صبـاح اليـوم السـابع والعشريـن قـال الغسـاني لرشـد أنـا اليـوم تعـب وأحـس أني محتـاج إلى راحـة فـاسرح عنـي بالغنـم ودعنـي أنـام في ظـل البلـوط.

سرح رشـد بالغنـم. أمـا مفلـح فتوغـل في الحـرش إلى مسـافة نحـو مئتـي مـتر ودخـل تحـت بلوطـة كثيفـة والتـف بعباءتـه ونـام نومـا هادئـا جـدا وكان النسـيم يلعـب بلحيتـه التـي طـال شـعرها، وبعـد سـاعتين أفـاق وخطـر لـه أن ينقـي القمـل عـن ثيابـه كـما كان يفعـل في كل يـوم فصعـد إلى عـب الشـجرة وجلـس عـلى غصنـين متحاذيـين وخلـع هدومـه ووضعهـا إلى جانبـه وبـدأ يفحصهـا.

الخيل المقبلة

أبصر من بعيد ركبا مقبلا فظنهم رجال درك فانحرف قليلا في حضن الشجرة وتوارى بالكلية واستبقى لعينه مطلا ضيقا، فلما قربت الخيل من البيت عرف منهم حسن وهزاع فلبس ثيابه وبقي ينتظر خبرا وإذا بولد لرشد أقبل في الجهة التي مشى فيها مفلح وأخذ يشوح له فنزل مفلح عن الشجرة وذهب مع الولد وإذا بالشيخ أسعد الفاهوم ومع شاب من آل غسان آتيا مع حسن وهزاع مسلحين.

***

حسن يقص حكاية الضيوف

سلم مفلح على الضيوف وقبل أن يكلمهم قال حسن: جاءنا هذان الضيفان الكريمان وطلبا أن يقابلاك فأنكرنا وجودك عليهما فقالا إنهما أتيا بدلالة الشيخ علي الشمالي فقلنا علي لا يكذب فأنت مررت بالطيبة وسافرت إلى قريات الملح.

فاستحلفانا فلم نجب فأقسم أسعد على القرآن أنه صديقك والآخر على الإنجيل أنه ابن أخيك فجئنا وإياهم مسلحين حتى إذا رأينا في نيتهما الغدر نقتلهما ونهرب وإياك إلى قريات الملح.

مفلح: أشكركما على فرط عنايتكما وحاشا للشيخ أسعد ولد عباس وأخو فضل الفاهوم ولابن أخي أن يغدرا بي.

موقف الشمالي المشرف

ثم تكلّم الشيخ أسعد وقال: أنا أعذر الشيخ حسن والشيخ هزاع إذا تنكرا منا ولكن اعذرني يالشيخ علي الشمالي الذي رافقك إلى بيته فقد أنكر أنه يعرفك أمام إبن أخيك لأنَّه ظنه ضابطا ألمانيا وطلب مني ألا أرميه ببلية وعبثا حاولت في بادئ الأمر إقناعه بأن هذا الشاب ولد أخيك.

فكان مفلح يسمع هذا الحديث بقلب كبير بقومه الأوفياء الحريصين على الدخيل.

***

الغساني يستقصي

قام مفلح من مقعد البيت وأومأ لابن أخيه وأسعد ولحسن وهزاع فتبعوه وجلسوا في ظل شجرة قريبة فالتفت مفلح إلى ابن أخيه وقال: ما وراءك؟ هات ما عندك من الأخبار.

فأخذ الشاب يقص على عمه ما جرى من بعد تفتيش البيوت وكيف أن الأوامر كانت ترد تباعا بوجوب التفتيش وقال: كانت الحكومة كل يومين ثلاثة تكبس الحارة التي كنت تتوارى فيها وقد أرسلت شراذم خيل لتتعقبك في جهات مختلفة حتى صرنا نخاف أن يعثروا عليك ويسوقوك إلى الإعدام.

وأخيرا جاء متصرف من عكا ومعه فوزي بك ملكي إلى الناصرة.

***

موقف لملكي

كان فوزي بك ملكي رفيقا لفوزي بك المتصرف في المدرسة وكان يعتبر من واجبه أن يساعده في مهمته بإقناع أصدقاء مفلح وأهله ليقنعوه بتسليم نفسه وقد فرضت الحكومة على ما شاع جائزة خمسين جنيها تركيا ذهبا لمن ينجح بهذه المهمة.

***

حديث ابن أخي مفلح

قال ابن أخي مفلح له: جاء متصرف عكا إلى الناصرة ومع فوزي بك ملكي واستدعى شقيقك وأصحابك السيد كامل قعوار وعيسى الدويري وأبلغهم أمر الولاية عطفا على أمر القائد العام القائل إذا لم يدل عبد الله مخلص وكامل قعوار وعيسى الدويري وشقيق مفلح عليه فابعثوا بهم إلى الديوان العرفي، وكان قد بلغ المتصرف وجمال باشا الصغير أن السيد فضل الفاهوم هو صديقه الحكيم وأنه هو وحده الذي يستطيع أن يدل عليك، فضم السيد فضل الفاهوم إلى السادة الأربعة الآخرين الذين دكروا في برقية الوالي وكان فوزي بك ملكي والمتصرف يستدعيان كل واحد من هؤلاء على حدة في الناصرة ويحاولان إقناعه بلزوم الدلالة عليك أو إقناعك بالتسليم.

عبد الله مخلص

أما السيد عيد الله مخلص فبعد أن سأله المتصرف وقائمقام حيفا عنك وأكد لهما أنه لا يعرف مقرك الآن فلم يعودا يسألانه على رغم تأكيد الوالي بوجوب سوقه مع الآخرين إلى الديوان العرفي وبعث إلينا يقول: أبلغوا مفلح ألا يلقي بنفسه إلى التهلكة دعوه يبتعد إذا كنتم تعرفون أين هو. نحن لا يصير علينا شيء في الديوان العرفي، أما هو فتسليمه لا يخلو من الخطر. واهتم أخوك والسيد كامل قعوار للأمر كثيرا وصار عندهما من تأكيدات فوزي ملكي شبه قناعة باحتمال خلاصك وصارا يميلان إلى إقناعك بتسليم نفسك على أمل أن تتخلص أنت من الشقاء ويتخلصا من المسئولية.

***

فضل الفاهوم

واتفق أن مر جمال باشا الصغير بالناصرة فبلغته هذه الحكاية فاستدعى إليه فضل الفاهوم وسأله قائلا : قل لي أنت صديق مفلح؟ فأجابه السيد فضل الفاهوم قائلا: نعم.

فقال: اسمع مني وانصحه بأن يسلم نفسه. قال فضل: صدق يا باشا أني لا أعرف أين هو ولكني إذا عرفت سأبلغه أمرك. فقال له الباشا: فتش عليه وأقنعه بالتسليم حالا. فقال الشيخ أسعد الفاهوم: ولكن الفضل لم يأخذ وعدا من جمال باشا الصغير، ولذلك هو لا ينصحني

بالتسليم ولا يشور بعدمه وهو مستعد للذهاب إلى الديوان العرفي عن طيب خاطر.

***

كامل قعوار وشقيق مفلح

قال ابن شقيق مفلح: لا عمي ولا كامل يشوران بتسليمك ولكنهما أرسلانا لنبلغك ما هو جار لتحيط علما بما بجري وتحكم لنفسك فلا تندم على مرور سانحة وأنت لا تعلم أو تحزن على ما يحتمل أن يصيب أحد أصحابك إذا سيقوا إى الديوان العرفي.

***

مسائل الجواسيس

أطرق مفلح قليلا وسأل: ماذا جرى بمسألة الجاسوسين العربيين اللذين قبض عليهما؟

- أرسلا إلى الديوان العرفي مع عدد من وجهاء المسيحيين بالناصرة.

- وماذ حل بمسألة الجاسوسة اليهودية؟

- قبض على كثيرين وأرسلوا أيضا إلى الديوان العرفي في دمشق.

مفلح: هل اتهمني أحد بشيء بمناسبة هياج الأفكار؟

أسعد: لا أبدا. كانوا أول ما قبض على الحمامة الزاجل بحيفا ذكروا اسمك بين المتهمين ولكن لما ظهر أن المسألة يهودية صار العقلاء يذكرونك بالخير.

***

يطلب المشورة

مفلح التفت إلى من حوله وقال: إن كان لأحد منكم رأي فليعطنا إياه في هذا الموقف الحرج.

فأجاب أحدهم: الرأي عندك.. ومن يجرؤ على إبداء رأيه في مسألة خطيرة كهذه؟

***

رأي حسن

حسن عبد الوالي: أنا رأيي أن تتوسع وتذهب إلى البرية وخلي الدار تنعى من بناها.

أنا من رأي مخلص أن الذين تسوقهم الحكومة إلى الديوان العرفي من أصحابك لا يصير عليهم شيء. غاية ما هنالك أنها تعذبهم قليلا وتطلق سبيلهم. أما أنت فحبل المشنقة أقرب إلى عنقك من طوق قميصك إذا سلمت نفسك.

قرار مفلح

مفلح: اشـهدوا لي كلكم على ما سأقوله.

أنـا أعلـم أن حسـن وهـزاع بمـا أني دخيلهـما لا يريداننـي أن أسـلم نفـسي بـل يفضـلان أن يطـيرا بي إلى خـارج منطقـة سـلطة جـمال مهـما كلفهـما ذلـك.

حسـن وهـزاع: واللـه عـلى مـا نقولـه شـهيد، جـرب وقـل الآن أن تريـد أن توسـع. هـذه خيلنـا وهـذا سـلاحنا وهـذه فـرس رشـد تركبهـا أنـت.

مفلـح: وأعلـم أن لا قيمـة لتطمينـات المتـصرف، فهـو مأمـور بالقبـض عـلي ومتـى سـلمني إلى العسـكرية تنتهـي مهمتـه وكل مـا يسـتطيع أن يكتـب كلمـة قـد يكـون لهـا شيء مـن التأثـير وقـد لا يكـون، فهـو إذن يريـد أن يكسـب بيـاض الوجـه عـلى ظهـري.

وأمـا فـوزي بـك ملـكي فصـل عـن القائمقاميـة ويجـب أن يخـدم المتـصرف ليعطـي فيـه تقريـرا طيبـا عـلى رجـاء أن يعيـدوا لـه قائماقيـة ولعلـه يريـد أن يربـح الخمسـين جنيهـا ذهبـا، وقـد يكـون متفائـلا ولكـن هـذا لا يغـير مـن موقـف الديـوان العـرفي شـيئا.

اليـوم العـدو قريـب مـن غـزة والحكومـة في حيفـا وعـكا أوراقهـا حـاضرة للنقـل في سـاعة إلى الداخليـة لنهـا تخـاف مـن الاحتـلال، فحمـل قائمقـام حيفـا ومتـصرف عـكا عـلى تـرك مركزيهـما عـلى الشـاطئ المخطـر والخـروج لتعقبـي لا يعنـي أن جـمال باشـا يدعـوني إلى وليمـة في هـذا الزمـن

المضطرب من حيث العدو فضلا عن ظهور الجاسوسية. ثم ولو كان الذي سيساق إلى الديوان العرفي أخي وحده من الذين طلبت الحكومة سوقهم لسليت نفسي بالقول إن سوقه أقل خطرا من سوقي ومهما تحمل في سبيلي فهو أخي.

أما أن يساق الأصدقاء الذين أحسنوا معاملتي في ضيقي إلى الديوان العرفي من أجلي ويصيب أحدهم ضرر ما فبقية حياتي تكون كلها شقية. أنا لا أريد أن أكون سببا في إضعاف المروءة من رؤوس الرجال ومنعهم من عمل المعروف وإغاثة الملهوف لذلك قررت أن أسلم نفسي بلا تردد مهما كانت النتيجة.

***

الموقف المؤلم

أطرق حسن عبد الوالي فسقطت من عينه دمعة ورفع هزاع رأسه إلى السماء. أما أسعد وابن شقيق مفلح فجمدا وغص مفلح عندما مر بخاطره ذكرى أولاده في تلك الدقيقة وكان سكوت وقور بضع دقائق.

الفصل التاسع والعشرون
الساعة الأخيرة في بيت الشعر

قام الشيخ حسن عبد الوالي وحدث شريكه رشدا بالأمر وأخبره أن مفلحا صمم على التسليم فاسود وجه رشد ولكنه لم يتكلم. وبعد قليل حضر الطعام فأكلوا جميعا وكان مفلح يظهر عدم اهتمام بما هو مقدم عليه حتى لا يكدر أصحابه وكانوا هم يظهرون أنهم متفائلون ليطمئنوه، ولكن الصدور كانت منقبضة وعلامات الانقباض بادية على الوجوه.

بعد الطعام أديرت القهوة ثم قال مفلح: حلوا الخيل (يا معازيب)، وقام ومسك بيد رشد وضغط عليها وشكره على حسن ضيافته وعنايته وهز يد (أبو خروف) الذي لم تخف عليه هذه الحركة فاستقصى خبر مفلح رفيقه الذي كان يسهر وإياه أمام البيوت يحدثه عن نوادر العرب، وعرف أن مفلحا قادم على خطر كبير فشق عليه فراقه، ولكنه صمت ولم يتكلم وكل ما عمل أنه مسح بردنه دمعة سقطت من عينيه فترجمت عما بقلبه من ألم.

قال مفلح لرفاقه: ظهورها. وركب هو الفرس التي أعدت له.

قال حسن: إلى الطيبة وفي المساء تتعشون وتسيرون بحراسة الله في الليل.

قبل مفلح بهذا الاقتراح لأنه أراد أن يسير في الليل حتى لا يراه أحد من الجنود.

***

من الطيبة إلى الغور

ركب مفلح وابن أخيه والشيخ أسعد الفاهوم بعد نصف الليل من الطيبة فوصلوا إلى الغور عند بزوغ الفجر وقصدوا إلى بيت مشوح اللبون شيخ صخور الغور، فأخرهم حتى فطروا وتقهونوا ثم ودعوا وركبوا، وبعد أن غابوا عن البيت قال مفلح لرفيقيه: سيرا أنتما إلى بيت الشيخ علي الشمالي وسلما عليه وخبراه أني صممت على تسليم نفسي وتغديا عنده وتعالا عصارى النهار إلى وادي البيرة تريانني في أحد كهوفه وفرسي أمام الكهف. قال إبن أخي مفلح: ولماذا لا نستمر في سفرنا إلى الناصرة؟

مفلح: أخاف يا عماه أن يلاقينا بعض رجال الدرك فيسيرون معنا جنبا إلى جنب حتى الناصرة وهناك يدّعون حينئذ أنهم قبضوا علي وأتوا بي وتضيع مزية تسليمي نفسي. قال أسعد الفاهوم: هذا هو الرأي الأصيل.. وسار ورفيقه إلى مضارب الشمالي.

الفارس الحذر

أما مفلح الغساني فحول وفكر قليلا ثم عاد وركب وسار إلى وادي البيرة وعرج قليلا عن الطريق وعقل فرسه وتركها ترعى، وأسند هو رأسه إلى حجر والتف بعباءته وحاول أن ينام قليلا لأنه شعر بنعاس وتعب على رغم قلق أفكاره. ما كاد يغلق عيونه حتى سمع صوتا يناديه: مفلح.

فتح عينيه ونهض وبارودته بيده والتفت وإذا بفارس منتصبا في الركاب وقد أسند رأسه إلى يده القابض ها على مرتينته التي يسندها إلى سرج فرسه. تذكر مفلح أنه رأى وجه الفارس أكثر من مرة ، فوقف ليسلم عليه فترجل الفارس وصافح مفلح وقال: علام أنت نائم مطمئنا في هذه الديرة؟

مفلح: أنا يا صاحبي كل الديرة صارت عندي أمان واطمئنان.

الفارس: هل عفي عنك؟

مفلح: أنا لست بالمجرم ليعفى عني ولكني صممت على التسليم.

***

المثل العربي

الفارس: اسمع يا مفلح.. أنت تعلم أن الناس من اليوم أنا أعلمك، يقولون عندنا بالعرب: عيشة بين الحافر والنعل ولا غصة من غصات

الدهـر. تـدري قديـش ضيـق بـين الحافـر والنعـل والعيشـة بـين الحافـر والنعـل خـير مـن المـوت. هـلي مـا هـم بعيديـن منازلهـم عـلى طـرف البريـة، غـدا مثـل هالوقـت وإحنـا عندهـم، قـم واركـب معـي وخـلي جـمال باشـا يـا خـوي يعـصر أحمـض مـا عنـده.

***

كيف رضي البدوي بالتسـليم

مفلـح: أنـا فاهـم يـا طويـل العمـر مـا تقـول ولكـن إن مـا سـلمت نفـسي يقبضـون عـلى أصحـابي ويعذبونهـم، وهـل مـن المـروءة أن يتعـذب بسـببي خـير مـن أحسـنوا إلي؟

الفارس: أنت يا مفلح الله ما يعثرك بهالنية. سـلم والله يسـلمك.

وركـب الفـارس فرسـه ولـوى رأسـها وجـر الـركاب في شـاكلتيها فراحـت تسـابق الريـح.

***

مفلح يفكر ويناجي نفسـه

أمـا مفلـح فشـيع الفـارس بنظـره وأخـذ يتأمـل في قيمـة الحريـة التـي يتمتـع بهـا هـذا البـدوي ويقابـل بينهـا وبـين الأسر الـذي سـيلقي بنفسـه فيـه طوعا واختيـارا، ويقـدر مـا يمكـن أن يلاقـي مـن خشـونة الجنـود وتهـم الخيانـة التـي كان يتهـم بهـا كل مـن تغضـب عليـه الحكومـة.

ثـم بـدأ يسـائل نفسـه قائـلا: وهـل مـن جنـون أعظـم مـن جنـون الـذي يكـون حـرا طليقـا يرعـى الغنـم السـليمة القلـوب ثـم يسـلم نفسـه باختيـاره إلى السـجن المظلـم بمـا فيـه مـن إهانـات واضطهـادات وتعذيبـات ربمـا انتهـت بإزهـاق الـروح بالتعليـق عـلى عـود المشـنقة؟

أليسـت عـثرة الخـروف الوديـع الـذي يتبعـك ولـو قدتـه إلى الجـزار أفضـل مـن وضـع النفـس تحـت رحمـة البـشر الذيـن يكـثر فيهـم الظالمـون والأردياء والأشرار؟

***

يفضل الحرية

إني أريـد أن ألحـق هـذا الصخـري وأبقـى متمتعـا بحريـة الصحـراء، فهـي خـير وأبقـى مـن حكومـة لم أفكـر يومـا بغـير نصحهـا وهـي تحسـدني عـلى شـقائي وتريـد أن تسـلبني حريتـي وتحرمنـي مـن حـق رعـي الغنـم. قـال هـذا في نفسـه ووقـف وشـد حـزام فرسـه ووضـع رجلـه في الـركاب.

***

يرجع إلى صوابه

وللحـال خطـر ببالـه أصدقـاؤه الذيـن عطفـوا عليـه وتخيلهـم أمـام الجنـود يسـوقونهم إلى التوقيـف ليشـحنوهم بالقطـار إلى الديـوان العـرفي بالشـام.

وتصور رئيس الديوان العرفي يستجوبهم ويعزو إليهم الخيانة لأنهم ساعدوا الخائن على النجاة من العدالة بدلا من أن يقدر لهم مروءتهم ونخوتهم وغيرتهم على التقاليد، فسطقت رجله من الركاب ومد يده إلى حزام الفرس وحله وجلس وأسند رأسه بين يديه وغرق في تأملاته ثم استلقى على غير إرادة منه ونام واستغرق.

***

لم يكلمهما ولا كلمة

وما أفاق إلا وابن أخيه والشيخ أسعد الفاهوم يوقظانه ففتح عينيه وكانت الشمس قد قاربت الغروب فنهض ومسك مقود فرسه وشده إليه وركب حزامها وركب وسار والشيخ أسعد وإبن أخيه يتبعانه دون أن يكلمهما أو يكلماه وكأنهما أحسا بشعوره أن ساعاته الرهيبة تدنو منه بسرعة وأحس هو بشعورهما بثقل المسئولية التي اتخذاها على عواتقهما بقبول مهمة دعوته ليسلم نفسه.

بقي الصمت سائدا نحو ثلاث ساعات حتى خيم الظلام فاخترق الصمت مفلح وخاطب أسعد بصوت أجش قائلا: ألا نزال بعيدين عن الناصرة؟

أسعد: صرنا على مسيرة نحو ساعة منها.

مفلح قال لابن أخيه: أين نحول؟

الشاب: في بيت عمي.

مفلح: ألم ترسموا خطة؟

الشاب: كلا فالخوف والدهشة كانا سائدين علينا.

مفلح: حسن فلنذهب إلى بيت عمي.

ثم أخذ مفلح يناجي نفسه قائلا: أنا ذاهب إلى الصلب؟ فهل أنا أمثل دور السيد المسيح وهو ذاهب لآخر مرة إلى القدس؟ ولكن المسيح تمجد قبل الصلب، فقد استقبله الشعب بالهتاف وفرشوا له الطريق بالرياحين وسعف النخل. أما أنا فماذا عساني ألاقي؟ هل يهتف لي الوطنيون فأتمجد قبل الدينونة وأتأكد من تقدير الشعب إخلاصي؟

بقي مفلح في هواجسه حتى أقبل على الناصرة، ومر من جانب الغرفة التي كان نائما فيها يوم كبس قائمقام حيفا بيوت أصدقائه من أجله فاضطرب ووقف شعر رأسه.

بقي الموكب الحقير سائرا إلى أن وصل بيت شقيق مفلح. قرع إبن أخيه الباب فقامت امرأة أخيه وسألت: من الطارق؟

قال الشاب: أنا.

المرأة: هل أتى؟

مفلح: نعم ها هو بين أيديك.

قام شـقيق مفلح وسـلم عليه وقال: لنذهب إلى بيت فوزي بك ملكي.

مفلح: لنذهب.

رحـب فـوزي بـك بمفلـح وأخـذ يطمئنـه ولكـن مفلحـا لم يبـال بـل كان غارقـا في هواكســه.

فرشـوا لمفلـح ونامـوا، أمـا هـو فبقـي متكئـا عـلى فراشـه إلى الصبـاح فأتـوا لـه ببذلـة لبسـها بـدل قفطانـه وأتـوه بحـذاء إفرنجـي فدكـه برجلـه ووقـف أمـام المـرآة وقصقـص لحيتـه ونظـم شـأنه وسـار في أثـر فـوزي بـك الملـكي إلى اللوكنـدة الألمانيـة حيـث كان المتـصرف فقـرع فـوزي بـك بـاب غرفـة المتـصرف ورطـن معـه بالتركيـة، فأطـل بثيـاب النـوم وهـش لمفلـح واعتـذر حتـى يلبـس ثيابـه وأم رجنديـه أن يدعـو قائمقـام النـاصرة بالعجـل.

وبعـد نحـو سـاعة تشـكلت هيئـة اسـتنطاق مواليـة لمفلـح مـن متـصرف عـما وقائمقـام النـاصرة واتخـذت فـوزي بـك ملـكي ترجمانـا.

***

هيئة الاستنطاق

سـألت الهيئـة مفلـح عـن سـبب اختفائـه فقـال بالاختصـار: أنـا إنمـا تواريـت عمـلا بالمثـل القائـل غـب عـن النظـر ينسـاك الفكـر.

أنـا صحفـي أشـتغل لمبـدأ، وهـذا قـضى أن يكـون لي خصـوم فخفـت أن يسـتفيد هـؤلاء مـن حمـى الحـرب ويتقربـوا إلى القـواد بالوشـاية بي،

وهكـذا كان.

اكتفـى المتـصرف والقائمقـام بهـذا الجـواب ودخلـوا مـع فـوزي بـك ملـكي غرفـة المتـصرف، وهنـاك اتفقـوا عـلى إرسـال برقيـة إلى الـوالي كانـت في مصلحـة مفلـح، لأنهـم لخصـوا فيهـا جوابـه لهـم.

***

الشهامة التركية تتجلى

التفـت المتـصرف إلى القائمقـام وقـال: مـن يبلغـه وهـو في البريـة أن الحكومة تطلبـه فيلبـي طلبهـا باختيـاره يكفـي منـه أن يثبـت وجـوده كل مسـاء لديكـم لا عنـد البوليـس ولا حاجـة بكـم إلى توقيفـه.

قائمقـام النـاصرة خالـد بـك: الحـر الـذي يخاطـر بحريتـه ويـأتي إلى الحكومـة ليثبـت لهـا براءتـه في أحـوال دقيقـة كهـذه مـع أنـه كان بوسـعه أن ينجـو منـا ولا يسـأل عنـا، يكفينـا منـه أن يعدنـا بـألا يـبرح النـاصرة قبـل أن يعطينـا خـبرا طالمـا نحـن بانتظـار جـواب المراجـع العاليـة عـلى برقيتنـا المتعلقـة بـه.

المتـصرف: المسـألة صارت بعهدتـك، ومهمتي أنا تمت فافعل ما بدا لك.

قائمقـام النـاصرة: قبـل أن أبلغـك إرادة الـوالي والقائـد العـام جوابـا عـلى برقيتنـا.

مفلح: سـمعت أن جمال باشـا الصغير هنا أتجيز لي مقابلته؟

القائمقـام: أنت حر في مقابلة من تريد.

الفصل الثلاثون

عند جمال الصغير

ترك مفلح الأوتيل ورجا فوزي بك ملكي أن برافقه إلى عند جمال باشا الصغير ف مقر الغرفة في الكازانوفا بالناصرة، ولما بلغا غرفة الباشا استئذنا بالدخول عليه فأذن حالا، ودخل فوزي بك ملكي ووراءه مفلح فقدمه إلى الباشا فقال جنابه بلهجة عسكرية: أين كنت يا هو؟ صار لنا ثلاث سنين نفتش عليك!

مفلح: كنت متواريا.

الباشا: ولم تتوارى في مثل هذه الظروف التي يجب أن يظهر فيها المخلصون ويتعاونوا على إنقاذ الدولة من المأزق الحرج الذي هي فيه.

خطر لمفلح أنه ذاهب إلى المشنقة وإلا لما كان القائد العام نفسه أظهر كل هذا الاهتمام في تعقيبة، ولذلك قرر أن يستعمل الصراحة التامة على رجاء أن يفيد استعمالها. فقال للباشا: تواريت خوفا من الظلم.

الباشا بحمق: وهل نحن ظالمون؟

كلمة مفلح للباشا

مفلح: أنا داعية للجامعة العربية بالدرجة الخاصة وللعثمانية بالدرجة العامة، وإني أقاوم بكل قواي الحركة الصهيونية والعمل لهذه المبادئ. ولذا لدي خصوما كثيرين فخفت أن يشوا بي في هذه الظروف الحرجة ويتسرع رجال العسكرية في حكمهم علي وأكثريتهم مصابون بحمى الحرب ومع ذلك فأنا لا أتردد في القول أنه لولا الظلم لما وصلنا إلى ما نحن فيه من الضعف والانحطاط على رغم اتساع الإمبراطورية العثمانية وكثرة عدد رعاياها وغناء مواردها.

وأطرف مفلح وقال: إسمع يا صاحب السماعة، لأقص عليك أن عمر بن الخطاب الذي لقبه محمد بن عبد الله بالفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل بقي يجلد إبنه على مشهد من جماعة من المؤمنين حتى مات لأنه زنى بامرأة ولم تنفع الولد توسّلاته ولا شفاعة أمه ولا حنان أبيه وقد قال عمر لإبنه لما طلب منه ماء: يسقيك مولاك من ماء الكوثر يا والدي، وأجاب على قوله له إنه يكاد يموت: جعل الله الجنة مأواك إذا مت. وإن رأيت محمدا فيها فقل له أن عمر يقرأ القرآن ويقيم الحدود أما رجال جيشكم وحكومتكم فلا يقرأون القرآن ولا يقيمون الحدود بل يهتكون الأعراض ويهدمون نظام العائلات ويسلبون الأموال ويعتدون على الحريات.

وهل في هذا ظلم؟

في عهد عمر الكبير بعدله القليل برجاله، كان خصوم المسلمين ينهزمون أمامهم وفتوحات العرب تتسع وفي زمانكم العدو يجوس خلال الديار على رغم كثرة عديدكم واتساع ملككم، فمال فوزي بك ملكي على مفلح عند هذا الكلام ومسك بثوبه فرفع مفلح رأسه كأنه أفاق من غيبوبة والتفت إلى الباشا قرأى الدموع انحدرت على شاربيه فقال في نفسه: يكفي أن أكون قد أثرت على نفس هذا القائد الباسل الشريف حتى بكى وهو لا يبكيه مرأى ألوف القتلى والجلارحى في ميادين القتال وصمت متأثرا. فمد جمال باشا يده إلى جيبه وأخرج منديلا ومسح دمعتيه وقال لمفلح: اذهب إلى الديوان العرفي وواصلني بأخبارك.

الملكي: إن جمال الكبير اصطفى كرد علي، وإذا سعادتكم اصطفيتم مفلحا فلا أظنكم تندمون.

الباشا: هاي هاي.

ودع الملكي ومفلح الباشا وانحدروا وذهب مفلح إلى بيت أخيه فلقيه أصدقاؤه الكثيرون وسلموا عليه بشوق وهنّأوه بالخلاص لأنهم ظنوا أن حكايته انتهت.

الفصل الحادي والثّلاثون

التَّحقيق

مثال على شرف الموظَّفين

بقي مفلح ثلاثة أيام يزور الناس ويزورونه، وفي اليوم الرابع دعاه إليه القائمقام الطيب خالد بك وقال له ورد نبأ تلغراف من متصرفية عكا عطفاص على أمر الوالي المعطوف على أمر القائد الأكبر يقول: خذوا التحقيقات السرية والعلنية على مفلح وأرسلوها مع مفلح محفوظا رأسا إلى القائد العام وهذه البرقية يجب ألا تزعجك، لأن كل المعلومات التي لدينا تثبت براءتك ورفعة مباديك.

قم قال القائمقام: لا أرى من المواقف التحقيق معي في دار الحكومة حيث يكثر تردد الناس، وأنا لا أحب أن يلاحظوا أن الحكومة لا تزال ترتاب في إخلاصك وتحقق معك، فالأفضل أن تزوروني في بيتي كل صباح من الساعة الثامنة فنشرب القهوة وسيجارة ونحقق إلى العاشرة وقت الحكومة.

مفلح: فليكن ما تريد.

***

جمال باشا ونوري بك

استدعى جمال باشا الصغير إليه بعد خروج مفلح من عند مدير جفالك بيسان سابقا الميرلاي المتقاعد نوري بك وقال له: أنت جندي قديم وعريق في الجندية فأستحلفك بشرفها أن تنورني بمعلوماتك عن مفلح الغساني الذي لا بد أن تكون عرفته معرفة حقيقية مدة إقامتك الطويلة في حيفا وبيسان.

نوري بك: أنا من يوم توارى هذا الرجل استغربت مطاردة الحكومة له لأنَّه من المخلصين الذين يجب أن تستفيد البلاد منهم في أوقات عصيبة كهذه.

لا أكتمك أنه عربي صميم وقد كان مواليا للسياسة الإنجليزية، ولكن هذا لا يعني أنه يكره الأتراك أو يشارك القائلين بالانفصال. هو يحب قومه العرب، ومن لا يحب قومه ويخلص لهم لا يستطيع أن يخلص لسواهم. هو يريد أن ينال العرب جميع حقوقهم من الحكومة ليحصل التفاهم التام وليتمكن الاتفاق بين عنصري الترك والعرب فتتألف منهما جبهة قوية في وجه الاستعمار.

وقد كان يميل إلى موالاة الحكومة للإنجليز لأن أسطولهم قوي في البحر المتوسط وشطوطنا عليه من الأستانة إلى مرسين مترامية الأطراف وليس لنا سوى خط حديدي ضيق للمواصلات بين الأستانة وسوريا والعراق نعتمد عليه في الحرب.

رأي مفلح بعد الحرب

ولكن لما أعلنت الحرب نشر مفلح مقالا قال فيه: يبقى الإنسان حرا في اعتقاده واجتهاده السياسيين إلى أن تدخل حكومة بلاده في حرب فحينئذ يترتب عليه أن ينظر بعينيها ويسمع بأذنيها ويتحسس بشعورها وينطق بلسانها.

قال جمال باشا: من كانت هذه حالته فلا لوم عليه ولا تثريب وإذا كان قد توارى حتى لا يكتب ضد ما يعتقد فهو عمل شريف. ولقد وصل من أثنوا لي عليه وطلبوا مني إنقاذه من وشايات خصومه.

سأساعده ولا أدع الوشاة ينفذون أغراضهم فيه . كثيرون منا كانوا من رأي موالاة الحلفاء والاحتفاظ بالحياد، ولو فعلنا ذلك لما كان علينا بأس اليوم.

***

مفلح عند القائمقام

ذهب مفلح في ثاني يوم إلى دار القائمقام خالد بك فوجده جالسا إلى طاولة ومعه الدكتور واصف بك عبد الهادي الذي كان طبيبا لبلدية الناصرة يومئذ وعليها ورق كتابة ودواة لأنه كان على ثقة من قدوم مفلح في الوقت المعين فأعد معدات التحقيق.

واصف عبد الهادي يترجم

حياهـما مفلـح تحيـة عربيـة وصافحهـما. وكان القائمقـام أراد أن يطمئنـه أنـه يحسـن بـه الظـن، وقـال لـه: دعـوت الدكتـور واصـف بـك عبـد الهـادي ليترجـم بيننـا وهـو صديـق لي وأنـا أركـن إليـه كثـيرا.

فشـكر مفلـح خالـد بـك عـلى هـذا الاختيـار وقـال: إني أشـعر أن الأقـدار ترعـاني في محنتـي هـذه، فقـد قيضـت لي طائفـة مـن خـيرة النـاس لتحوطنـي بالعنايـة وتقينـي شر المفسـدين المنافقـين.

خالـد بـك: أنـا أعتقـد أن إخلاصـك هـو الـذي سـخر النـاس لخدمتـك. تفضـل اجلـس!

جلـس القائمقـام والدكتـور واصـف بـك عبـد الهـادي إلى ناحيـة مـن الطاولـة وجلـس مفلـح إلى الناحيـة الأخـرى، وأخـذ القائمقـام يسـأل مفلحـا بالتركيـة وواصـف بـك يترجـم ومفلـح يجيـب عـن الأسـئلة بـكل صراحـة.

***

غيرة القائمقام

واسـتمر الاسـتنطاق ثلاثـة أيـام متواليـة وقـد أجـاب مفلـح عـلى بعـض الأسـئلة بمـا لم يستحسـنه القائمقـام فلامـه عـلى صراحتـه وقـال: مثـل هـذه الأجوبـة لـو دوناهـا قـد تـضر بـك كثـيرا في الديـوان العـرفي. وقـال لواصـف بـك: لا تدونهـا. وهـذا مثـال عـلى تلـك الأسـئلة:

هـل كنت مواليا للاتحاديين؟

مفلـح: نعـم عـلى إثـر إعـلان الدسـتور ولكننـي انقلبـت عليهـم وصرت ضدهـم لمـا تمشـوا عـلى سياسـة تتريـك العنـاصر.

فقـال القائمقام: ومـاذا ينجيك إذا دونا لك مثل هذا الجواب؟

مفلـح: وهـل تحترمنـي وتصدقنـي إذا واربـت في أجوبتـي لـك؟ أنـا صرت ضـد الاتحاديـين لأني اعتقـدت أن سياسـة التتريـك التـي تمشـون عليهـا أخـيرا توسـع شـقة الخـلاف بـين العـرب والـترك وتجعـل العـرب المخلصـين يتّحـدون مـع طـلاب الوظائـف عـلى مقاومـة الأتـراك فيصـير العنـصران القويـان في المملكـة يطاحنـان بـدلا مـن أن يتعاونـا.

هـذا صحيـح ولكـن يخـشى مـن رجـال العسـكرية ألا يطيلـوا بالهـم ليقفـوا عـلى هـذه الإيضاحـات. وهـذا مثـال آخـر:

القائمقام: وهل كنت ترجح موالاة السياسـة الإنجليزية؟

مفلـح: بكل معنى الكلمة.

القائمقام: ولماذا؟

مفلـح: لأن بلـدان المملكـة العثمانيـة منتـشرة عـلى شـاطئ البحـر وللإنجليـز أسـطول قـوي فيـه ولم يكـن للألمـان سـوى طـرادي الجويـن والبرسـلو في البحـر المتوسـط.

قال خالد بك: وهذا أيضا يجب ألا ندونه لأن أكثر الضباط تعلموا عند الألمان وميولهم ألمانية، والديوان العرفي مؤلف منهم.

بقي الاستنطاق الوجاهي مستمرا كما قلنا ثلاثة أيام، ومن ثم أخذ خالد بك يستعلم عن مفلح من معارفه وأصحابه الذين يحسن القائمقام بهم الظن وفي جملتهم نوري بك الذي شهد له بمثل ما شهد لجمال باشا الصغير.

وأخيرا ألف خالد بك الأوراق وذيلها بفذلكة من عنده قلبت على مفلح بالديوان العرفي قال فيها ما خلاصته:

إن تحقيقاتي السرية والعلنية دلت على أن مفلح الغساني بريء من كل ما يعزى إليه وهو أمين ومخلص لحكومته وقد كنت أفضل أن تستفيد الحكومة من إخلاصه بدلا من أن تشتبه به وتطارده.

وقال القائمقام لمفلح: تهيّأ للسفر بعد يوم أو يومين محفوظا إلى دمشق والله يحرسك وينجيك ويعيدك إلينا سالما فائزا يرضي الحكومة بدلا من غضبها.

الفصل الثاني والثلاثون
السفر إلى الشام

جاء مفلح إلى دار الحكومة في الوقت المعين. فقال له خالد بك قائمقام الناصرة يومئذ: اذهب واستأجر فرسا وواف حيال الدرك إلى البيادر وهو يرافقك ويسلم أوراقك إلى قومندان موقع العفولة.

ذهب مفلح إلى بيت أخيه وأعد ثيابه وهي بذلة غير الذي عليه وغيار ووضعهما في خرجه واستأجر فرسا وكان أخوه وبعض أصدقائه أعدوا له ١٥ جنيها عثمانيا ذهبا ويضع أوراق بنك نوط فوضعها في جيبه وتهيأ للسفر.

***

الروايتان المحروقتان

ونادى مفلح أخاه ودفع إليه تنكة فيها ملف وقال: هاتان روايتان إحداهما (في ذمة العرب) أو (حرب ذي قار) والأخرى (وفاء العرب) وهما من محصول العزلة. وقد راجعت من أجلها شكسبير مرتين. وطالعت أكثر منماية رواية، وراجعت تاريخ حوادثهما، وكنت في ظروف ساعدتني على وضعهما. وبعد أن فرغت منهما وضعتهما في هذه التنكة ودفنتها في التراب، وأعلمت بها صديقاص واحدا، وها أنا لما عدت استخرجتهما من تحت التراب، وأسلمك إياهما لتعيدهما لي إذا عدت من الديوان العرفي سالما، وألا تطبع الرواتين لمنفعتي ولمنفعة

أولادي وبلادي إذا مت، وأنا أعتقد أن في الأمة أوفياء يرجونهما، والشعب طيب يقبل عليهما.

وقد كان الغرض من الاهتمام الجدي بهما ووضعهما في قالب تمثيلي أن يكثر تمثيلهما على المسارح العربية، فيتذكر الناس شهامة أسلافهم ونخوتهم ونجدتهم ووفائهم، وسائر مكارم الأخلاق العربية، وليتذكر النصارى والمسلمون أن النصارى كانوا عربا قبل الإسلام، وليذكروني كلما مثلوها ويذكروا شدة ولعي بعروبتي وفرط اهتمامي بإحياء ذكر مفاخر العرب، ولذلك أرجوك أن تحرص عليهما وتعمل بوصيتي.

***

التوديع

قال مفلح هذا وعانق أخاه وابن أخيه وبعض أصدقائه وصافح الآخرين وامتطى فرسه ونزل إلى بيادر الناصرة، فوجد هناك خيال الدرك الذي اشتبه به وأراد أن يقبض عليه عند كفر كنا فنجا منه بحيلة. فعرّف مفلح الشرطي بنفسه وذكره بذلك الحادث فأراد الشرطي أن يظهر شهامة ويستر عمليته وأنه ما كان ليقبض على مفلح لو عرفه بنفسه يومئذ، فقال: إن كنت تريد أن تهرب الآن فأنا مستعد لأرافقك إلى حيث تريد.

مفلـح: لـو أني أريـد الهـروب لمـا سـلمت نفـسي بعـد أن كنـت في معـزل أمـين.

***

مفلح يناجي نفسه

بقـي مفلـح سـائرا مـع خيـال الـدرك الزعبـي إلى العفولـة، وكان يـسرح الطـرف في مـرج ابـن عامـر الواسـع وفي مـا حولـه مـن جبـال وأوديـة، ويناجـي نفسـه قائـلا: كـم دافعـت عـن هـذه الأراضي مـن أجـل بقائهـا عربيـة عثمانيـة فهـل فيهـا مـن ينقـذني مـن الطاغيـة جـمال إذا أراد أن يصلبنـي؟

وللحـال تذكـر نخـوة عبـد اللـه بـك الفاهـوم لـه وقـال هنيئـا للبـلاد التـي لا يـزال فيهـا مثـل هـذا الرجـل.

***

في العفولة

مـا شـعر مفلـح إلا وهـو في العفولـة وقـد قـاده الشرطـي إلى أمـام قومنـدان الموقـع فتـلا هـذا تحريـر القائمقـام وأمـر بوضـع مفلـح تحـت الحفـظ في إحـدى المحـلات إلى أن يجـيء القطـار.

وفي المسـاء سـلمه إلى قانـون جاويـش مـع تحريـرات قائمقـام النـاصرة وكتـاب منـه ليوصلـه إلى القومنـدان العـام في الشـام.

في القطار بلا قيد

ركب مفلح القطار وركب إلى جانبه القانون جاويش ولم يضعوا حديدا لا في يديه ولا في رجليه وسار القطار الهوينا على الحطب في طريق الشام، فوصل درعا عند الصباح فأقام فيها ساعة واستأنف السير ووصل إلى محطة القدم بدمشق بعد الغروب بنحو ساعة، فوجد الشام في زينة لأن جيوش الألمان كانت قد احتلت النمسا وطردت الطليان عن البلدان النمساوية التي احتلتها.

***

إلى دماسكوس بلاس

سأل مفلح القانون جاويش بعد أن نزلا من القطار قائلا: أتريد أن تسلمني الآن أم تبيت في أوتيل إلى الصباح؟

القانون: كما تريد؟

خطر لمفلح أن يتنعم ليلة قبل السجن فقل لنذهب إلى دماسكوس بالاس ونأخذ غرفة نبيت فيها وفي الصباح تسلمني.

القانون: حسن.

ذهب الاثنان إلى دماسكوس بالاس وطلبا غرفة من مديرها، فتفرس المدير في مفلح وزانه بنظره من رأسه إلى قدمه ورأى القانون بمسدسه وراءه فأدرك مفلح أن هيئته لم تعجب مدير الأوتيل وأن رؤية القانون

معـه أرعبتـه، فابتسـم مفلـح وقـال: خُلقـت لأشـقى.

قال المدير: إني متأسـف جدا لأن كل الغرف ملأى.

مفلـح للقانـون: هيا بنا إلى حيث يرحبون بنا.

القانون: إلى أين؟

مفلح: سـلمني يا شيخ وأرح نفسك وأرحني.

القانون: لمن أسـلمك بهذا الليل؟

مفلح: إلى من تريد.. إلى الشـياطين.. إلى مسدسـات.

خـرج الإثنـان مـن الأوتيـل وأخـذ القانـون يسـأل عـن قومنـدان المركـز، ولما اهتـدى ذهـب ومفلـح إليـه فلـما قـرأوا عناويـن التحاريـر قالـوا للقانـون نحـن لا يمكننـا أن نسـتلم هـذا الرجـل منـك لأنـه مرسـل رأسـا إلى البـاش قومنـدان ومقـره وراء الصالحيـة في المهاجريـن.

***

الفصل الثالث والثلاثون
إلى الباش قومندان

القانـون: هل نذهب إلى القومندان؟

مفلـح: خـذ لنـا عربـة وأنـا أدفـع أجرتهـا، لأني تعـب جـدا ولا أمـل مـن عيشـة أكابـر وراحـة نصـف سـاعة.

أوقـف القانـون عربـة وركبـا فيهـا فسـارت بهـما إلى مقـر البـاش قومنـدان، فوقـف الحـوذي وقـال: انحـدرا فأنـا لا أجـسر عـلى الدنـو خطـوة. هنـا غضـب اللـه يحـل عـلى البـشر - كان اللـه بعـون هـذا الرجـل وأشـار إلى مفلـح.

نـزل القانـون ومفلـح ودخـلا المقـر وكان عـلى بـاب الـدار حـارس فسـأله القانـون، فدلـه عـلى المـكان فـترك القانـون مفلحـا بحراسـة الحـارس ودخـل وهـو يحمـل التحريـرات إلى داخـل المقـر وسـلمها إلى رئيـس أركان الحـرب عـلي فـؤاد بـك ورجـع واسـتلم أسـيره.

وبعـد هنيهـة خـرج عـلي فـؤاد بـك ومعـه ضابطـان وعسـكري يحمـل فانوسـا أمامهـم ودنـوا مـن مفلـح وأخـذ عـلي فـؤاد بيـده الفانـوس ورفعـه وتفـرس في وجـه مفلـح بعظمـة أمامـه.

علي فؤاد: من أنت؟

مفلح: أنا مفلح الغسـاني.

عـلي فؤاد بك: كيف قبضوا عليك؟

مفلح: سلمت نفسي.

عـلي فـؤاد: يجـب أن تنتظـر في سـجن الديـوان العـرفي لأن البـاش قومنـدان غـير موجـود وأوراقـك يجـب، بنـاء عـلى أمـره، أن تدفـع إليـه فنحـن لا نسـتطيع تحويلهـا.

والتفـت إلى الجنـدي الـذي كان يحمـل النـور وقـال: دل القانـون عـلى أقـرب معسـكر.

والتفـت إلى أحـد الضبـاط وقـال: أكتـب إلى قومنـدان الطابـور أن يحافـظ عـلى هـذا الرجـل إلى إشـعار آخـر.

***

ليلة في المعسكر

سـيق مفلـح إلى المعسـكر القريـب مـن القـرار كلـه فأدخـل إلى خيمـة ونـام مـع بعـض الجنـود عـلى الأرض وكانـوا عـلى جانـب مـن اللطـف معـه.

انتظـر مفلـح إلى عصـارى اليـوم الثـاني وهـو عـلى أحـر مـن الجمـر لأنـه كان يريـد أن يعـرف مصـيره.

عند قومندان آخر

وعند العصر جاء قانون شاويش إلى الخيمة فسلموه مفلحا وذهب إلى دار كبيرة عرفها مفلح فيما بعد أنها كانت مقر جمال باشا الصغير، فأدخلوه على قائد طابور ربعة القامة أسمر اللون صغير العينين يتكلم باللهجة المصرية.

سأله القائد: من أنت؟

مفلح: أنا مفلح الغساني.

القائد: متى جئت؟

مفلح: أمس.

كأن القائد لم تعجبه كلمة أمس فقال لمفلح اطلع برا وأدار وجهه عنه. فتقدم القانون ومسك بيد مفلح واقتاده إلى «برا». طلب القائد من قومندان المركز بضعة أنفار من الجند فبعث إليه بأربعة فساروا بمفلح إلى عند قومندان «المركز».

***

محمد علي فيضي باشا حفيدي

وكان هذا هو محمد علي الذي كان في حيفا يوزباشا على إثر الانقلاب العثماني ولعب فيها دورا مهما بتظاهره بالاتحادية وبالغيرة الوطنية، وكان كما يعرفه القراء نصف عبد ويطبع بطاقاته باسم فيضي باشا حفيدي يعني من نوع الذين يفتخرون بخؤولتهم.

فلما وقع نظر مفلح عليه حسب أنه صاحب بخت لن الأقدار أتت به إلى رجل وطني صميم. كيف لا وعهد مفلح به لما كان يحدثه في المسائل الوطنية أنه كان يتأثر لدرجة البكاء ويبتدئ بعصر عينيه الصغيرتين حتى تترطبا فيعجب مفلح بهذه الوطنية الحساسة سريعة التأثر.

***

صاحبنا اليوم غيره بالأمس

وإذا بصاحبنا اليوم غير ذلك الرجل الذي عرفه مفلح يتظاهر بالعظمة ولا عظمة كوريورال وشنغتون، ونظر إلى مفلح شزرا وأوقفه في غرفة بحراسة نفرين، فسأل مفلح نفسه: هل سثلمت إلى هؤلاء الزبانية ليجروا مثل هذه المراسم علي؟

ثم تأمل قليلا وقال لنفسه: لو بقيت بعيدا من أين كان يأتي لي أن أعرف حقيقة هذا الرجل الذي كان يتلبس بالوطنية؟

إلى السجن

كيف يسوق محمد علي فيضي باشا حفيدي مفلحا إلى السجن؟

استدعى محمد علي فيضي باشا حفيدي الذي كان يجلس باكيا متأدبا أمام مفلح عندما كان يحدثه عن الوطنية - استدعى ثمانية أنفار وأعطاهم بعض أوامر عسكرية بصوت جهوري ويده على سيفه كأنه هاجم على معركة، فاصطفوا اثنين اثنين ثم أمر أن يقدموا مفلحا إليهم فقدموه ووضعوه وراء الأربعة أنفار الأولين وأمام الأربعة الآخرين، ووقف قانون عن يمينه وآخر عن شماله فصاح بهم فيضي باشا حفيدي - ارش كأنه صاج بجيش لجب.

***

إلى الأخور الألماني

مشوا ومشى مفلح معهم ميكانيكيا لأنه كان غارقا بالتفكير في محمد علي فيضي باشا حفيدي. مشوا إلى خان الباشا وهو سجن الديوان العرفي وكان على بابه لوحة كتب عليها بالألمانية «الأخور الألماني».

فقال مفلح في نفسه:وضع هذه اللوحة على باب هذا السجن يصح علي، فعدم انصياعي لأوامر قنصل ألمانيا والعمل بسياسته كان من الأسباب الرئيسية التي سببت سوقي إلى هذا السجن. وأظنه يصح أيضا على سائر العرب الذين سيقوا إليه لأنهم أبوا أن يحاربوا لمصلحة ألمانيا والاستعمار واغتروا بالسمعة.

الأخور الألماني أو سجن الديوان العرفي

أدخل مفلح من خوخة بوابة خان الباشا ومشى تحت عقد إلى فناء الدار وكان خان الباشا عبارة عن غرف أرضية كانت تستعمل أواخير لخيول وحيوانات المسافرين وغرف علوية كان يستأجرها أصحاب الحيوانات والمسافرون لينامو فيها.

وقد حوّل الألمان هذا الخان إلى أخور، ثم تنازلوا عنه فحوّلته الحكومة إلى سجن وكانت تسجن فيه المغضوب عليهم كثيرا في الأواخير والباقون في الغرف العليا.

التفتيش

استلم مفلح قانون ضخم الجثة جاف الحديث، أناضولي ولكن ظهر فيما بعد أنه أطيب قلبا من فيضي باشا حفيدي ومعه جنديان وسار به إلى ساحة الخان، وهناك فتش ثيابه في الخرج بدقة ثم أمره بخلع ثيابه ما عدا القميص والسروال فخلعهما ففتشه وأخذ من دراهمه إلا بعض متاليك وثلاثة أوراق تركية لتودع في الديوان العرفي مخافة أن يرشي بها الجنود ليساعدوه على الهرب، وأخذ القانون يملي على الغساني الأوامر فقال: هذه غرفتك تخرج منها مرتين - مرة في الصباح وأخرى في المساء لحاجتك ومتى خرجت إذا عملت إشارة أو حكيت كلمة مع أحد المسجونين أو حاولت إغراء أحد الجنود فيطلق عليك

الرصاص فورا. حذار أن تقوم بأية حركة إني أنصحك أن لا تحاول مخالفة التعليمات فالأوامر بحقك مشددة. وانحنى وقال بصوت واطء: لم أتلق بعد أشد منها في هذا السجن. أدخلوه إلى غرفته.. ساق الجنديان الغساني وأغلقوا عليه باب الغرفة وكان بها شباك محدد يفتح على باحة الدار.

دخل مفلح الغرفة وأخذ يتفحص بيته الجديد فإذا أرض الغرفة قد فرشت بالخشب لتغطية زبل الحيوانات ووجد في الحيطان مسمارين فاطمأن مفلح لوجودهما. تطلع من الشباك فوقع نظره على حجر يزن نحو ثلاثة أواق في أرض الدار فاطمأن له أيضا.

وبعد قليل جلس مفلح على الخشب وأسند كوعه إلى خرجه وأخذ يتأمل بقول ذلك البدوي «عيشة بين الحافر والنعل ولا غصة من غصات الدهر»، ويقابل بين مقعده الحالي وبين مقعده مع الأمير الراعي أبو خروف أمام خيمة رشد السردي.

ثم قال في نفسه: ولعلنا نجد فيما بعد هذه الحالة خيرا مما سيصيبنا، فالحمد لله على كل حال.

***

أول ليلة في السجن

صرف مفلح أول ليلة في سجن الديوان العرفي أو الأخور الألماني بدمشق، وقد استولى عليه القلق الشديد لا لأنه شعر بالإهانة التي لقيها من محمد علي فيضي باشا حفيدي فحسب، بل لأنَّه اكتشف أن الحرارة الوطنية التي تظهر في رؤوس بعض الرجال مصطنعة، وأن المتظاهرين بالوطنية قد يكونون أشد خطرا على الوطنيين الحقيقيين من أعداء الوطنية ومن الجواسيس والمفسدين والمنافقين. وزد على ذلك، فإن ثياب مفلح كانت رقيقة ونام على الحشب في أخور رطب في بلد كدمشق في أواخر الخريف ولم يكن عنده سوى عباءة خفيفة يتغطى بها فلم يذق طعم النوم تلك الليلة. وقبل منتصف الليل سمع صوت محمد علي فيضي باشا حفيدي، وقد تأكد من لكنته، سمع صوته يكلم الحرس وقد علم من ذكر اسمه أن الحديث كان عنه، وفهم من لهجة الحديث أن فيضي باشا حفيدي كان يوصي الجنود بشدة السهر على مفلح والحذر منه، فأخذ يسائل نفسه قائلا: أليس عدم التعرف بأمثال هذا الرجل أسلم خطرا من معرفته؟ أيريد هذا أن يتقرب بي من أسياده؟

ماذا يستطيع أن يقول عني؟ هو لا يعرف لي زلة.

بعد قليل ذهب فيضي باشا حفيدي وأطل الخفراء من الشباك على مفلح فظنوه نائما، فتفقدوا قفل الباب ومضوا.

الفصل الرابع والثلاثون
خانته شجاعته

بقي مفلح يضرب أخماسا في أسداس ويتقلب من جنب إلى جنب، ولما اشتد البرد خانته مبادئه فأخذ يلوم نفسه ويقول: أما كان الأفضل لي أن أماشي قنصل ألمانيا على سياسته وأفوز بصداقته؟ وأي صلة لي بالإنجليز حتى أجاهر بتفضيل موالاتهم على موالاة الألمان؟ وهل أنا أشد غيرة على الدولة العثمانية وأعرف بمصالحها من رجال حكومتها؟

ولو تغاضيت عن مقاومة الصهيونية قليلا لما اكثرت عدد خصومي من اليهود والعرب الذين كانوا يستفيدون من زعماء الصهيونيين على ظهري.

ولو جاريت الاتحاديين على سياستهم المتطرفة بتتريك العناصر وبموالاة الألمان ونافقت لهم كغيري لما وصلت إلى هذا السجن المهين، ولما كنت أعاني ما أنا فيه من العذاب والبرد وشظف العيش والمخاوف والإهانات، ولما أصبت في أعز شيء عندي الذي هو الشرف، بل كنت الآن محترم الجانب مسموع الكلمة، وكان المال يرد علي من كل جهة. لقد أضعت فرصة ثمينة، فقد كان يمكنني أن أكتنز ثروة وأبني نفوذا.

اليقظة والذعر

ما وصل مفلح إلى هذا الحد من التفكير والمناجاة حتى شعر كأن ضربة وقعت على دماغه الذي كان كأنه يهذي، فتنبه مذعورا من أفكاره وخائفا من نفسه قائلا: أإلى هذا الحد بلغ مني الضعف والجبن؟ ومتى كنت ألين أمام المصاعب؟ ومتى كنت أقدم المال والمنفعة على المبدأ؟ كم أنا صغير النفس، أليس الموت أستر وأجل من مثل هذا التفكير الدنيء الفاضح الذي يقتل السمعة؟

قد تكون هذه أيامي الأخيرة، وقد أخرج من هذا السجن إلى المشنقة فهل يخسرني الجبن والخوف فخر جهادي وشرف مبادئ؟

وهل يفقدني الضعف وطنيتي وأخلاقي؟

لم يضربوني ولم يعذبوني بعد، فماذا عساه يحل بي إذا وضعوني تحت السوط؟؟

وقام من ساعته وانتزع مسمارا كان في الحائط وألقاء تحت خرجه حتى إذا فتش المكان يظن المفتشون أن المسمار موجود بطريق العرض في ذلك المكان. وقال في نفسه: غدا سأجد لنفسي طريقة آتي بها بالحجر الذي رأيته في باحة الدار وأحتفظ به في جهة أخرى من الغرفة، فإذا دعوني للاستنطاق وأرادوا أن يعذبوني فحينئذ أطلب منهم مهلة ليلة لأخبرهم بكل شيء، وأمنيهم أن عندي أشياء كثيرة أقولها لهم، ومتى عدت إلى غرفتي واطمأننت بعد أن يتفقدها الحرس أضع هذا المسمار في صدغي

وأضربه ضربة قوية بالحجر وأختم حياتي ختاما شريفا وأخلص نفسي من الإهانة أو من الظهور بمظهر الضعيف تحت الضرب.

***

الانقلاب

انتعش مفلح بعد أن مرت به هذه الفكرة وتشجع كثيرا وجرى الدم في عروقه وقام وصار يمشي في الغرفة ذهابا وإيابا بسرعة ليطرد البرد، وأخذ يفكر بأن موقفه أمام التحقيق والديوان العرفي يجب أن يكون مشرفا لنفسه وللعرب وتذكر خطابه لجمال باشا الصغير وخطر له أن الجرأة الأدبية لها تأثير كبير على أدمغة رجال القضاء والحكومة الشريفة، فانقلبت بهذه الخواطر مخاوف مفلح إلى سعادة، وقضى بقية ليله سعيدا بخيالاته كأنه بين أهله وأخوانه.

***

محمد علي يخاطب مفلح

عند الساعة العاشرة صباحا جاء محمد علي فيضي باشا حفيدي يتفقد حبس الديوان العرفي، لأنَّه كان تحت إشرافه ، وجاء إلى أحد السجانين ففتح له غرفة مفلح فدخل عليه وقال: إن... نهارك سعيد شيخ مفلح... نمت طيب الليلة؟

مفلـح: الحمـد للـه عـلى كل حـال. إني أرى حلاقـا يحلـق لبعـض المسـجونين فهـل تـأذن بـأن أقـص شـعري وأسـوي لحيتـي؟

محمـد: الا...ن أعطي أمر. نمت... مليح؟

مفلـح: كان الفكر مطمئنا.

***

كيف قص مفلح شـعره

لم يعجـب هـذا الجـواب فيـضي باشـا حفيـدي فـأدار ظهـره ومـشى وبعـد قليـل أتى الحـلاق ومعـه جنديـان فوقـف جنـدي إلى اليمـين وآخر إلى اليسـار، وقـام الحـلاق بوظيفتـه. ولمـا انتهـى ذهـب هـو والجنديـان وأغلقـوا البـاب عـلى مفلـح وسـكروه.

خـرج مفلـح ثـاني يـوم لقضـاء حاجتـه ولبـس عباءتـه ووضـع منديلـه في جيبـه ووضـع فـوق المنديـل بضعـة متاليـك، وفيـما هـو عائـد إلى غرفتـه سـحب منديلـه بسرعـة مـن جيبـه فانتـثرت المتاليـك عـلى الأرض والحـرس يراقبـه بدقـة فقعـد القرفصـاء وبـدأ يلتقطهـا حتـى دنـا مـن الحجـر وجعلهـا تتغطـى بالعبـاءة فالتقطهـا ووضعهـا في جيبـه، وقـام ودخـل غرفتـه، ووضـع الحجـر في زاويـة مـن زوايـا الغرفـة. وكان المسـمار تحـت الخـرج، فاطـمأن لوجـود الأدوات اللازمـة عنـده ليقـضي عـلى حياتـه إذا حاولـوا إهانتـه أو تعذيبـه بالـضرب.

الأيام الأولى في خان الباشا أو الأخور الألماني

قضى مفلح الخمسة عشر يوما الأولى تحت التضييق في الأخور الألماني أو سجن الديوان العرفي، فلم يكن يسمح له بالخروج من غرفته سوى مرة في الصباح وأخرى عند الغروب، ولم يكن أحد يكلمه حتى ولا من الخفراء إلا الكلمات الضرورية، وكان يتغدى على الفول والحمص، وفي كل ليلة كان محمد علي فيضي باشا حفيدي يأتي وينصب ديوان مع القانون جاويش والخفراء أمام غرفة مفلح ويحذرهم من هروبه.

كان مفلح إذا خرج من غرفته في المواعيد المحدودة له لا يحاول رفع رأسه ليرى المسجونين لئلا تبدو منه أو من أحد منهم التفاتة توجب ريبة الحرس فيجر على نفسه وغيره مشكلة جديدة وعذابا.

صبر مفلح ولا صبر أيوب على هذا التشديد وكأن صبره الجميع أثر على نفس القانون جاويش الأناضولي الذي كان على رغم خشونته شريفا والظاهر أنه كان موثوقا جدا من جمال باشا الصغير ومن رئيس الديوان العرفي.

وقد خيل إلى مفلح أن محمد علي فيضي باشا حفيدي ربما كان قد دبر له مكيدة لولا أمانة هذا القانون، وفي مثل هذه الظروف يشعر الضعفاء بحاجة البشر إلى المتانة الأخلاقية.

باب الفرج

في صباح اليوم الخامس عشر لما فتح القانون لمفلح الباب هش له وقال: إيه شيخ مفلح مش بريد شي؟

تذكر مفلح قول جمال باشا الصغير له بالناصرة: اذهب إلى الديوان العرفي ولا تخف فقط واصلني بأخبارك.

كان مفلح إلى ذلك الوقت يعتقد أن جمال باشا نسيه من كثرة أشغاله ولم يستحسن أن يثقل عليه. ولكن لما سأله القانون هذا السؤال خطر له أن يكتب لجمال باشا عن حاله فسأل القانون قائلا: أيمكن تقديم استدعاء لجمال باشا الصغير؟

القانون: هاي هاي فقط رئيس ديوان عرفي رئيسي واسطة سيلة.

مفلح: فهم مفلح هذه العبارة وسأل أيوصل رئيس الديوان العرفي الاستدعا إلى الباشا؟

القانون: معلوم يا...

مفلح: خذ هذا البنك نوط واشتر لي قلما وورقا وحبرا.

وبعد قليل أتى القانون بهذه اللوازم فكتب مفلح استدعاء إلى جمال الصغير قال له فيه: لما قابلتك في الناصرة وعدتني بالمساعدة. أنا تحت أشد التضييق في حبس خان الباشا، وهذا لا يتفق مع العدالة ولا مع

الـشرف العسـكري، فـإذا تـرك التضييـق إلى مـا بعـد المحاكمـة والحكـم فحينئـذ أمـا تحصـل عنـدي قناعـة بـأني مجـرم ومسـتحق أو أقـول إني أتعـذب لأن المحكمـة اعتقـدت أني مجـرم.

***

الليلة الرهيبة

كان الحـرس يسـهرون كل ليلـة في غرفتهـم ويغنـون ويدقـون عـلى العـود إلى مـا بعـد منتصـف الليـل وكان مفلـح يسـلي نفسـه بوجـود حركـة في السـجن عـلى رغـم أنـه كان يكـره الغنـاء ويشـمئز مـن سـماعه وخصوصـا في زمـن الحـرب وفي أيـام محنتـه.

ففـي الليلـة السادسـة عـشرة كان الحـرس بعدمـا غنـوا وشربـوا وطربـوا وقبـل أن يذهبـوا لينامـوا فطـن القانـون فأمـر أربعـة مـن الحـرس أن يتقلـدوا سـلاحهم ففعلـوا ومـشى وإياهـم.

سـمع مفلـح وقـع أقدامهـم عـلى الـدرج فقـال في نفسـه: ربـاه فزعـة مـن وقعـت هـذه الليلـة؟ لا ريـب في أن هـذه الحركـة عبـارة عـن سـوق أنـاس إلى المشـنقة.

ولكـن وقـع الأقـدام بعـد نـزول السـلم أخـذ يتجـه إلى الجهـة التـي كان مفلـح فيهـا بـدلا مـن أن يتجـه إلى البـاب، فقـال مفلـح: أيمكـن أن يكـون هـؤلاء آتـين إلي؟ ومـا كاد يمـر بـه هـذا الخاطـر حتـى وقفـت الحركـة عنـد

بـاب غرفتـه ومـا هـي إلى دقيقـة حتـى فتـح بابهـا فقـال القانـون لمفلـح: أنـت سـهران؟

مفلح ارتجف وقال أنا سـهران من البرد.

القانـون: قل يلله هبدي.

فخطـر لمفلـح، أيمكـن أن يسـوقني هـؤلاء إلى المشـنقة بـدون محاكمـة؟ ثـم خطـر لـه أن يسـأل القانـون عـن حوائجـه وإذا كان يصطصحبهـا معـه وقـال في نفسـه: إن قـال هاتهـا معـك تكـون الحركـة لنقـل مـكان وإن قـال أبقهـا هنـا يكـون الغـرق سـوقه أمـا إلى التعذيـب وأمـا إلى المشـنقة.

فقـال القانـون لأحـد الجنـود: احمـل هـذا الخـرج والتفـت إلى مفلـح وقـال: في غـيره؟

مفلـح: لا – مطمئنـا بعـض الاطمئنـان . ومسـك القانـون بيـد مفلـح ومـشى والجنـود وراءهـما في الـدار ثـم صعـدوا الـدرج ومشـوا إلى دهليـز وفتحـوا غرفـة فيهـا إثنـان فقـال القانـون لمفلـح: ابـق هنـا إلى الصبـاح نشـوف. وقفـل الجنـد بـاب الغرفـة ومضـوا وتركـوا مفلحـا والسـجينين الآخريـن معـا.

سجينان أم جاسوسان

ما كاد مفلح يطمئن من عدم سوقه إلى المشنقة أو إلى التعذيب في تلك الليلة برؤية ظهر الجنود الذين قفلوا الباب بعد خروجهم من الغرفة وحسب أنه يقدر أن ينام إلى جانب السجينين على قطعة حصير كانت مفروشة في أرض الغرفة حتى بدأ السجينان يسألانه عن اسمه وسبب سوقه إلى الديوان العرفي فتنكر منهما وظنهما جاسوسين جيء به إليهما ليستنطقاه، وكأنهما شعرا بما يدور في خلده فأخذ كل واحد منهما يقص عليه حكايته بدوره فقال الواحد: إنه من بيت مرشي من الناصرة وقد جئت من مصر بمعية رجل آخر محترم من أبناء الناصرة وأنزلنا طراد إنجليزي تحت رأس الكمل من جهة حيفا، فتقدمنا إلى الناصرة وهناك قبض علينا وعذبنا وأرسلنا إلى السجن وقبض بسببنا على بعض من آل الزحلان بحيفا وعلى أناس من ذوات الناصرة ثم أطلق من أطلق سراحه بعد تحقيق قائمقام الناصرة وخليل رفعت بك النزيه وأرسل من أرسلوا إلى هذا السجن، وكان مفلح قد سمع شيئا كثيرا عن هذه القصة ورأى بعض الناصريين في السجن لكنه لم يطمئن للرجل لأنه قال في نفسه: إن كان هذا جاسوسا فلا يبعد أن يتقرب بسببي إلى ذوي الشأن وينقل عن لساني ما كان وما لم يكن .. لأن مفلحا كان يعتقد أن التجسس وخصوصا للأجانب يقضي ببيع الذمة والشرف، ولذلك زاد في التكتم وقال إنه تعب جدا ويريد أن ينام ويرتاح.

فقال له الآخر: أما أنا فلم أقص عليك قصتي. أنا رجل اسمي كذا وقد قبضوا علي لأن رجلا باسمي وكنيتي في أمريكا كتب مقالا ضد

الدولـة العثمانيـة، فهـل عنـدك رأي أو تدبـير تهديني إليـه؟ فظـن مفلـح أيضـا أن كلام هـذا غـير معقـول ورجـا الرفيقـين الجديديـن أن يـتركاه ينـام ويسـتريح.

***

مفلح يستغرق

سـكت المسـكينان قليـلا ثـم راحـا يتهامسـان فقـال أحدهـما للآخـر: نحـن ظننـا أن هـذا الرجـل جـاء ليسـلينا ونتعـاون معـه عـلى تفريـج همومنـا وإذا هـو بخوفـه وقلقـه يزيـد الرعـب في قلوبنـا.

أمـا مفلـح فلـم يتظاهـر أنـه سـمع هـذا القـول ومـا هـي إلا دقائـق حتـى اسـتغرق في نـوم عميـق جـدا كأن الحصـير التـي نـام عليهـا كانـت فراشـا مـن حريـر وكأن عباءتـه التـي التـف بهـا كانـت غطـاء مـن صـوف ناعـم.

والظاهـر أن السـجينين الآخريـن أشـفقا عليـه لمـا تأكـدا مـن شـدة نعاسـه فلـم يعـودا يزعجانـه حتـى الصبـاح إذ اسـتيقظ مفلـح عـلى القانـون وهـو يفتـح البـاب بغلظـة.

***

بصيص الفرج

فتح القانون الباب ونادى: شيخ مفلح أفندي.

فقال مفلح في نفسه: ماذا عسى أن يكون سبب هذا الاعتبار؟

هذه أول مرة يلقبني القانون بلقب أفندي فماذا وجد علي؟ هل انقلب محمد علي فيضي باشا حفيدي ورجع إلى حاله أم ماذا؟

غير أن القانون لم يترك مفلحا في حيرته طويلا فابتدره قائلا: أنت دوست «صاحب» مع جمال باشا الصغير شوف شو يكتب. وأخرج القانون من جيبه استدعاء مفلح وإذا بجمال باشا الصغير قد شرح عليه بما معناه:

«عاملوا شيخ مفلح الغساني معاملة حسنة إلى نتيجة المحاكمة».

فقال مفلح للقانون: أطال الله بقاءه وبقاء الباشا هو رجل عالي الجناب.

القانون: هاي هاي كلو يحب جمال الصغير هو كثير طيب.. إي والله.

ثم قال القانون: ابق أنت بهذه الغرفة لبينما أهيئ لك غرفة أخرى. فاطمأن قلب مفلح نوعا وعلم أن جمال باشا عنى ما قاله بالناصرة وأنه لم ينسه.

ماذا يفعل الخوف

مـا كاد القانـون ينـصرف حتـى بـدأ السـجينان الآخـران يحدثـان مفلـح ويرجوانـه أن يتوسـط في أمرهـما ظانـين أنـه يملـك زمـام جـمال باشـا وكأنهـما نسـيا أن مفلحـا سـجين أسـوأ حظـا منهـما وأنـه إنمـا رقـي في هـذه الليلـة إلى درجتهـما وأتيـح لـه أن ينـام معهـما.

***

اطمئنـان مفلح لرفيقيه

ثـم بـدأ مفلـح يطمـئن لرفيقيـه فـصرف ذلـك النهـار وهـو يحدثهـما بمواضيـع مختلفـة حتـى تبـيّن لـه مـن أحاديثهـما أنهـما سـجينان مثلـه وأن المصيبـة قربتهـما منـه وجعلتهـما يسـألان عـن حالـه ويرقـان لـه. فعفهـما بنفسـه وقـال لهـما أنـه لا يـزال يجهـل التهمـة الحقيقيـة التـي جـيء بـه مـن أجلهـا إلى الديـوان العـرفي وينتظـر معرفتهـا مـن هيئـة المحكمـة.

***

أصدقاء مفلح

ثـاني يـوم مـر مـن أمـام الغرفـة التـي كان فيهـا مفلـح أنيـس الخـوري بلبـاس قانـون جاويـش ورأى مفلحـا ومفلـح رآه، ولكنهـما خشـيا أن يتكلـم أحدهـما مـع الآخـر مـن الوشـاية.

وفي ثالث يوم جاء الدكتور أمين أفندي أبو فاضي ليعالج أحد المجروحين من الضرب في الناصرة في حادث التجسس الذي قبض بسببه على كثيرين من اليهود، فرآه مفلح وهو داخل إلى غرفة المريض وبقي ينتظره على الشباك ليجعله يراه وهو عائد ويطمئن أصحابه عنه إذا رآهم.

وفيما كان الدكتور خارجا من الغرفة رأى مفلحاص أمامه فدهش وأراد أن يتكلم ولكن مفلحا رفع يده إلى فمه إذارة للدكتور حتى لا يتكلم وأومأ إليه أن يسير في طريقه. فمشى الدكتور دون أن يتفوه بكلمة.

***

محمد علي

وقد ارتاح مفلح لأنه لم يعد يرى محمد علي فيضي باشا حفيدي ولا سمع عنه شيئا في اليومين الأخيرين.

الفصل الخامس والثلاثون
شكري باشا الأيوبي

بعد يومين طلب مفلح إلى أمام محكمة الديوان العرفي، فسمع شكري باشا الأيوبي الذي كان في السجن، المناداة باسم مفلح وأدرك الغرض منها وكأنه أراد أن يشجع مفلح فخرج من غرفته ونزل من الدرج بحجة أنه يريد قضاء حاجة وفيما هو عائد طلع الدرج الهوينا فالتقى بمفلح نازلا فهمس في أذنه قائلا: تشجع ولا تخف فقد ضعفت معنوياتهم بكل معنى الكلمة. وبقي سائرا فلم يهتم لحركته أحد على رغم أن الجنود لاحظوها لأنه كان رحمه الله محترما جدا من الجنود بالنظر لما ظهر منه من الشهامة والصلابة أثناء تعذيبه بالديوان العرفي ولأن رتبته العسكرية كانت كبيرة جدا وأخلاقه رضية.

أما مفلح فانتعش بهذه الكلمة من شكري باشا الأيوبي ليس لأنه كان يتمنى ضعف معنويات الأتراك بل لأنه شعر بوجود من يهتم به في الديوان العرفي وهو كان يلاحظ أن شكري باشا كان ينظر إليه نظرات العطف من حين إلى آخر.

***

أمام المحكمة العرفية

ساق قانون الديوان العرفي وجنديان مسلحان مفلحا إلى محكمة الديوان العرفي وكانت مؤلفة من قائمقام عسكرية وثلاثة بينباشية ويوزباشيان ويوزباشي عدلي.

تليت على مفلح التهم الموجهة إليه وإذا هي كثيرة وتتلخص في أنه عدو للاتحاديين وبالنتيجة للأتراك وللدولة ولحلفائها الألمان وموال لعدائها الإنجليز، وأنه كان يدعو قبل الحرب إلى موالاة الإنجليز وكان بعده يتجسس لهم وأنه عربي النزعة بكل معنهى الكلمة وداعية للإنفصال وأنه هو كاتب كتاب الإنذار للحكومة بوجوب تموين الأهالي وعقد الصلح أو ترفع راية السليم إلى بوارج العدو لما تزور موانى حيفا الذي وجه في صندوق بريد الكولونية الألمانية بحيفا.

***

الكتاب

ويغلب على الظن أن هذا الكتاب كان من تدبير قنصل ألمانيا الدكتور لوينفت وقد حوكم من أجله جماعة من خيار الكاثوليك بحيفا، وقد كان من قبيل كتاب لندلي الألماني إلى المرحوم بطرس طنوس وأخيه بالناصرة.

موقـف مفلح حيال التهم

ارتعـد مفلـح الغسـاني لهـذه التهـم واشـمأز وخصوصـا مـن تهمة الجاسوسـية فيها .

ثـم تليـت عليـه تحقيقـات قائمقـام النـاصرة وفذلكـة القائمقـام، وبعـد ذلـك سـئل إذا كان يعـترف بهـذه التهـم فنفاهـا نفيـا كليـا وسـئل عـن تحقيقـات قائمقـام النـاصرة باعـترف بهـا جميعهـا.

الرئيـس: هل كنـت تدعو إلى موالاة الإنجليز قبل الحرب؟

***

مفلح يدافع عن رأيه

مفلـح: لـكل إنسـان اجتهـاد في سياسـته أمـا أنـا فقـد كان اجتهـادي أن أقـدك مـوالاة افنجليـز عـلى مـوالاة الألمـان لأن بـلاد الدولـة مـن الأسـتانة إلى مرسـين عـلى الشـواطئ البحريـة التـي ليـس لألمانيـا فيهـا غـير طـرادي الغويـن والبرسـلو في مقابـل أسـطول البحـر المتوسـط الإنجليـزي الضخـم وعـلى رغـم ذلـك أنـا كنتأرجـح خطـة الحيـاة إذا وقعـت حـرب عالميـة.

ولكنـي بعـد دخولنـا في الحـرب كتبـت وقلـت مـا معنـاه: يبقـى الإنسـان حـرا في اجتهـاده حتـى تدخـل حكومـة بـلاده في حـرب فحينئـذ يترتـب عليـه أن ينطـق بلسـانها ويـرى بعينيهـا ويسـمع بأذنيهـا وقـد تناقلـت هـذا القـول بعـض الصحـف.

الرئيس التفت إلى رفاقه وقال بصوت واطئ: كثيرون منا كانوا يفضلون موالاة إنجليترا على ألمانيا ويؤثرون الحياد على الدخول في الحرب.

***

تأجيل الجلسة

استغرقت ترجمة التهم والتحقيقات وقتا طويلا فرفع الرئيس الجلسة وبش لمفلح وقال: ندعوك متى عينا لك جلسة أخرى. فألقى مفلح نظرة على هيئة المحكمة فاطمأن لوجوه رجالها سوى عدلي للمحكمة أكثر من الجميع لأنه ودعه بنظرة عطف ذات مغزى. واحد منهم وأعجبه وجه الضابط العدلي الذي كان يعمل كمستشار.

***

مفلح ورفاقه

عاد مفلح من الديوان العرفي مطمئنا وأدخل إلى غرفته وقفل عليه الباب حسب العادة فسأله رفيقاه عن حاله فقال جلسة تمهيدية للدخول في الدعوى وقد قرئت علي التهم الموجهة إلي.

- وما هي؟

- ما لكم ولها.. هي كثيرة!

- عرفنا عنها هل هي خطرة؟

- لـو لم تكـن مخطرة لما كنت محشـورا معكم، دعونا من حديثها.

بعد هذه الجلسـة نام مفلح ملء عينيه.

وثـاني يـوم أصـدر رئيـس الديـوان العـرفي إلى السـجانين أن ينقلـوا مفلحـا إلى غرفـة حسـنة وأن يحسـنوا معاملتـه.

***

بـين الرئيس ومحمد علي

وقـد جـاء جاويـش الديـوان العـرفي ليطلـب أناسـا إلى الدعـوى، فأخـبر قانـون السـجن أن الرئيـس اسـتدعى إليـه محمـد عـلي فيـضي باشـا حفيـدي إلى دار المحكمـة وخاطبـه بلهجـة حازمـة قائـلا أن جـمال باشـا مقتنـع كل القناعـة بـبراءة مفلـح وإخلاصـه. وأن التهـم الموجهـة إليـه كلهـا مسـببة عـن وشـايات منزلقـين وأغـراض دنيئـة، وقـد بـدت المحكمـة تتحقـق هـذا. فبنـاء عليـه دع التضييـق عـلى مفلـح وأنـا أمـرت معاملتـه معاملـة حسـنة وكل إسـاءة إليـه تـسيء رئيسـنا جـمال باشـا الصغـير واعلـم أن سـجن التوقيـف مرتبـط بي أنـا لا بـك.

محمـد عـلي فيـضي باشـا حفيـدي بـدأ يعتـذر عـما فـرط منـه وقـال أنـه عـرف مفلحـا رجـلا مخلصـا ولكنـه خـشي أن يكـون مخطئـافي حكمـه لما رآه مسـوقا إلى الديـوان العـرفي ولذلـك فقـد أراد أن يكفـر عـن خطيئتـه ويـسيء إلى مفلـح لأنـه اعتقـد أنـه خدعـه بتظاهـره بالوطنيـة بحيفـا.

الرئيس: مهما كان اعتقادك واجتهادك فاترك أمر مفلح للمحكمة ولا تتدخل في أمره.

ما كاد مفلح يسمع هذا الخبر حتى كاد يجن من شدة فرحه لأنه كان يستثقل تضييق محمد علي فيضي باشا حفيدي كثيرا كما يستثقل كل واحد معاملات المجرمين المرائين الذين يحاولون إثبات إخلاصهم بالإساءة إلى الأبرياء الذين يكونون بينهم وبين الحكومة سوء تفاهم.

الفصل السادس والثلاثون
غرفة أفضل

بعد هذه الجلسة نقل مفلح من غرفته المظلمة التي كان يحسبها جنة بالنسبة إلى غرفته الأولى في الأخور ونقل معه الجاسوس من أبناء مرشى إلى غرفة أفضل منها قليلا، وكان السجين الأول قد حكم عليه بالحبس سنه بمناسبة المقال الذي قال إن رجلا آخر باسمه كتبه. أما هذا الذي بقي معه فكان الحكم عليه بالإعدام قد صدر ولم يبلغ إشفاقا عليه.

***

كيف يعامل الأتراك المحكومين العرب

في مساء يوم جاء القانون إلى الجاسوس وسأله: من أي مذهب أنت؟ فأجفل قلب الرجل من هذا السؤال كما ارتجف له مفلح وسأل السجين عن سبب هذا السؤال. فما كان من القانون إلا أن أجاب قائلا: أنت كنت منذ نحو أسبوعين قدمت استدعاء تطلب فيه من الحكومة أن تعطيك جراية كأحد الجنود لأنه فقير، وقد أعيد استدعاك هذا وأجيب عليه بأنه غير ممكن إجابة طلبك وجاءنا نحن أمر لنعلم رئيس طائفتك ليهتم بأمر إعاشتك في السجن.

وقد أدرك مفلح أن جواب القانون كان رقيقا جدا وأنه أراد به أن ينفي الرعب من نفس المسكين الي حكمت عليه السياسة بالموت وأن يدعه يطمئن وينام في الليلة الأخيرة من ليالي حياته.

ولكنه أيقن من أن هذا السؤال هو لإعلام الرئيس الروحي ليحضر في وقت الإعدام ويجري المرتسم الدينية لهذا التعس فانفطر قلبه عليه.

نام الجاسوس نوما هادئا وهو لا يدري ما ينتظره في آخر الليل. أما مفلح فبقي كل الليل مضطربا حزينا على ذلك المسكين الذي باع حياته بطمعه وجهله. ونحو الساعة الثالثة في الصباح جاء الجنود وأيقظوه وساقوه إلى حيث لاقى حتفه هو والرجل الآخر الذي جاء في خدمته.

***

بلا حديد

ولما أصبح الصباح كان السجن كله حزينا كاسفا وكانت وجوه المسجونين كلها شاحبة، وكان مفلح على رغم تأثره يفكر في كيف ترك الديوان العرفي هؤلاء حتى بعد الحكم بلا قيود حديدية على رغم ثبوت جرم الجاسوسية والحكم عليهم بالموت، وفي كيف أن القانون تحاشى إخبار هذا التعس بالحكم عليه وإفجاعه بخبر إعدامه قبل الأوان خلافا لبعض الحكومات التي تسوق المتهمين بجراءم عادية والذين كثيرا ما يكونون أبرياء مكبلين إلى المحاكمة.

نور جديد في السجن

وفي ثاني يوم جاء القانون وقال لمفلح: أمرت أن أسألك لتختار الغرفة التي تريدها في هذا السجن.. فاختار مفلح الغرفة المقابلة لغرفة شكري باشا الأيوبي، فنقل من فيها إلى غرفة مفلح ونظفت ونقل مفلح إليها وأخبر أنه حر في السجن ليحدث من أراد وأن غرفته لا تقفل عليه وأنه لم يعد تحت المراقبة.

سر مفلح بهذا التغيير وظنه مسببا عن تواصي جمال باشا الصغير لرئيس الديوان العرفي وكان مفلح كلما رأى معاملة حسنة يحمد الله على خلاصه من مراقبة فيضي باشا حفيدي الشديدة.

***

ينقي قملاته

ما كاد مفلح ينفرد في غرفته حتى خلع ثيابه والتف بعباءته وبدأ ينقي قملاته وبينما هو على تلك الحال دخل عليه شكري باشا الأيوبي مبتسما فحياه فوقف مفلح والتف بالعباءة ورد للباشا تحيته فضغط الباشا على يده ضغطا شديدا ورحب به وهنأه بما نال من الحرية الجزئية ووعد أن يعود ويزوره حالما ينتهي من تنظيف جسمه وثيابه من قمل السجن.

شكري باشا

أما مفلح فقد ابتهج كثيرا بالباشا وتأمل أن يسمع منه ما أصابه في السجن متى اجتمع به ولكنه خجل كثيرا من دخول الباشا عليه وهو على تلك الحال.

عاد الباشا وسأله مفلح عن حاله وعما لاقى فلم يشأ الباشا أن يبوح بشيء ولعله أراد أن لا يخيف مفلح فضلا عن أنه فضل كتم إهانته وقد حذر الباشا مفلح من اثنين من رفاقه في التهمة كانا جاسوسين عليه.

***

التحقيق

شعر مفلح بارتياح بسبب تبدل موقفه في السجن وعاد إليه حسن الظن بصفاء قلوب كبار رجال الحكومة العثمانية، واطمأن قلبه بعض الاطمئنان لنتيجة المحاكمة وقد سيق مراراص إلى أمام محكمة الديوان العرفي التي كانت تحقق معه في الإخباريات المتعددة بحقه وفي التهم الموجهة إليه، وكان يجيب عليه بكل صراحة.. ومما سألوه: أنت على أثر إعلان الدستور سميت أحد أولادك أنور تيمنا بأنور باشا ناظر الحربية الحالي ثم ما لبثت يوم تغيرت على الاتحاديين أن بدلت اسمه وقد سألنا فتأكدنا صحة هذا الخبر.

رأي مفلح في موقف أنور

أجاب: نعم سميت ابني الثاني الذي ولد قبل الدستور بخمسة أيام أنور على اسم أحد بطلي الدستور تيمنا ولم أستبدله باسم أديب بسبب تغيري على الاتحاديين بل لأن أنور بك يومئذ غادر العرب في طرابلس وتركهم يحاربون التليان بدون قيادة.

الرئيس: وماذا كان على أنور باشا أن يفعل بعد أن صالحة الحكومة العثمانية إيطاليا وأمرته بالانسحاب؟

مفلح: كان عليه بحسب اعتقادي أن يستقيل من خدمة الحكومة ويستمر على مدافعة التليان حتى النهاية. ذلك خير م ترك عدة الولاية العربية تتسلخ عن جسم الدورة وكسر قلوب العرب أجمعين. هذا كان اجتهادي ولست أعلم إذا كانت محكمتكم تؤاخذني عليه وتتداخل في حريتي الشخصية بتسمية أولادي، وقد وضع هذا الكلام حدا للمناقشة في هذا الموضوع.

***

ميول مفلح الحزبية

ثم دار التحقيق في إحدى الجلسات حول ميول مفلح الحزبية فجاهر مفلح بأنه لم يكن يكره الاتحاديين ولكنه كان يكره سياسة تتريك العناصر التي تمشوا عليها.

بين ألمانيا وإنجلترا

وسياسة تقديم موالاة ألمانيا على إنجلترا لأنه كان يعتقدها مضرة بالدولة.

***

الكتاب المشؤوم

وأخيرا دار التحقيق حول الكتاب الذي سبق ذكره، فنفى مفلح بكل شدة عنه التهمة، وقد ساعدت صراحة مفلح في أجوبته عن الأسئلة الأخرى على الاعتقاد بصدق كلامه.

وبعد نحو ١٢ جلسة في أوقات مختلفة، تقرر طلب أوراق دعوى المكتوب من دوسيات الديوان العرفي بالقدس لتطبيق خط مفلح على خط الكتاب.

***

في إحدى الجلسات

وحدث في إحدى الجلسات أن مفلحا كان متأثرا من أحد الجنود الذين ساقوه من السجن إلى محكمة الديوان العرفي في يوم شتاء وكانت الطريق موحلة فكان مفلح يتنقل على الحجارة لأن حذاءه كان عتيقا وكان الماء يدخله، وفيما هو يتنقل في الطريق ليتحاشى الرطولة دفعه أحد الجنود بخشب البندقية وقال له (سيدي) فمشى مفلح متأثرا

جدا وما وصل إلى الديوان العرفي وانعقدت الجلسة وأخذ الرئيس يلقي عليه الأسئلة وهو يجيب عليها وهو يكاد يتمزق من غيظه حتى قال للرئيس بعد فراغه من الأسئلة: إلى متى يا سيدي تبقون تأخذونني وتجيبونني بحراسة الجنود الذين يسوقونني بالبنادق والحراب؟ ألص أنا؟ أجان أنا؟ أخائن أنا؟

في كل كلمة خطتها يدي تتجلى آيات الإخلاص لقومي ووطني وحكومتي.

أما تخرجونني بالكفالة وتحاكمونني طليقا، وأما تحكمون علي وتريحونني من التشهير المذل والإهانات؟

***

ضابط عربي

وما كاد مفلح يصل في حديثه إلى هنا حتى أجابه البنباشي العربي من أعضاء الديوان العرفي قائلا: صوص أنت هنا لتحاكم كمتهم بخيانة ولم ندعك لتلقي علينا خطابا.

قال مفلح: إذا كانت محكمتكم تحرم المرء من الدفاع عن نفسه بعد حرمانه من إقامة محام فاحكموا بما يتراءى لكم والأمر لله.

حديث الرئيس الرهيب

سأل الرئيس عن هذه المحاورة من الكاتب الترجمان، وكان عربيا فترجم له إلى التركية كل ما قيل. فالتفت إلى العضو البينباشي وحدثه بالتركية بصوت خافت.

ثم التفت إلى مفلح وقال له: إن التهم الموجهة إليك مدهشة عديدة كما رأيت، فنحن لا نستطيع إخراجك بالكفالة حتى ولا جمال باشا الصغير يستطيعه. أنجق هذا البيوك قومندان يستطيعه.

ثم قال: أنت حر لتدافع عن نفسك كما تريد، فوقع هذا الكلام كالصاعقة على رأس مفلح وبهت منه ولم يعد يستطيع الكلام لأول وهلة، فقال للرئيس: أنا يا سيدي متأثر من قبل أن دخلت الديوان العرفي وقد زاد تأثري بعد دخولي فأرجو إن حسن لدى سعادتكم أن تؤجلوا الجلسة. فسأل الرئيس الأعضاء وسأل المشاور العدلي فقبلوا بالتأجيل وأعيد مفلح إلى السجن وذهب معه قانون الديوان العرفي في هذه المرة.

الفصل السابع والثلاثون
التطور

بينما كان مفلح ثاني يوم صباحا يفكر في حديث الرئيس له عن التهم الموجهة إليه بأنها مدهشة وعديدة، وإذا بقانون الديوان العرفي وقف على باب غرفته وقال البس ثيابك وانزل فأنت مطلوب.

أسرع مفلح في لبس ثيابه وخرج من غرفته وحيا شكري باشا الأيوبي، ونزل الدرج وأخذ يفحص بعينيه عن الجنود والقانون الذين سيسوقونه إلى الديوان العرفي فلر ير سوى بوليس مدني في ساحة الدار، فاستغرب ووقف ينتظر فدنا منه البوليس وسأله قائلا: أنت مفلح الغساني؟

- نعم أنا هو.

- تفضل.

- مع من؟

- معي أنا.

بعد أن أجال نظره في الدار ليرى إذا كان الجنود أتوا بسلاحهم قال: أين الجنود؟

- لا حاجة بنا إلى الجنود.

- نذهب إلى الديوان العرفي؟

- كلا.

- إلى أين إذن؟

- سوف ترى.

مشى مفلح والبوليس إلى جانبه صامتين ولم يعودا يتكلمان أبدا، ولكن مفلح استغرب هذا التغيير في طريقة سوقه وأخذ يفكر في نفسه إلى أين يكون هذا السوق وخصوصا بعد أن تجاوز طريق الديوان العرفي.

***

قرار كاه جمال الصغير

ولكن حيرة مفلح لم تطل لأنَّه رأى نفسه أمام البناية الكبرى التي أرسل منها إلى عند محمد علي فيضي باشا حفيدي قومندان المركز ولم يكن قد عرفها بعد أنها قرار كاه جمال باشا الصغير.

دخل البوليس القرار كاه وسارا إلى أمام غرفة فقرع البوليس الباب وأتى بكرسي لمفلح وبلفافة تبغ.

***

أمؤامرة هناك

جلس مفلح وأشعل لفافته وأخذ يفكر في هذه الدعوة والغرض منها، وما هي إلا دقيقة حتى خرج من الغرفة محمد علي فيضي باشا

حفيدي ببذلة جديدة تنعكس ألوان قصبها الذهبي وتخريجها الأحمر وبياض نصاب السيف على لونه النحاسي الضارب إلى السواد ومعه ضابطان آخران وأغلق الباب وراءهم فاضطرب مفلح لمرآهم وقال في نفسه: هل كانوا في مؤامرة مع سيد هذه الغرفة السرية التي سيدخلونني إليها؟

ما كاد مفلح يصل إلى هذا الحد من التفكير حتى فتح الباب ثانية وأطل منه ضابط شاب برتبة قائد مئة وقال لمفلح: تفضل.

***

خليل رفعت

رمى مفلح السيجارة من يده ودخل ببطء ورصانة فمد الضابط يده إلى مفلح وقال: أهلا وسهلا.

مد مفلح يده ميكانيكيا وصافح الضابط الذي ضغط على يد مفلح وسأله قائلا:

- وكيف حالك؟

مفلح: كما ترى.

الضابط: ستفرج إن شاء الله. تفضل اجلس. وأومأ إلى كرسي كانت إلى جانب مفلح.

جلس مفلح على الكرسي وأخذ يدرس هذه الملاطفة بتكنلوجيا، وحالا خطر له المثل القائل «أفرخ يزق عتيقا» يعني صغير يطعم كبيرا، وقال في نفسه: سوف لا أدع هذا الضابط الشاب يعمل شيئا من هذا. وسوف أدرس حالاته وتطورها.

تناول الضابط علبة فضية وأخرج منها لفافة وقدمها لمفلح، فتناول مفلح اللفافة وقال في نفسه: مهما كان غرض هذا الشاب فالأمر الذي لا مراء فيه أنه خير من فيضي باشا حفيدي.

- هل عرفتني؟

- كلا!

- تفرّس في جيدا لعلك تذكر.

- دعنا من هذا يا سيدي والله يحييك، لندخل رأسا في الموضوع الذي دعوتني من أجله.

- أنا خليل رفعت.

- لم تزدني معرفة الله يحييك.

- أنا خليل رفعت رئيس محكمة عجلون سابقا، وقد كتب لك عني صديقك نجيب فركوح أني أخلص حقوق المزارعين والعوام من الزعماء، فقدرت لي هذا العمل وشكرتني عليه ثم تعارفنا شخصيا في حيفا.

تذكر مفلح الرجل ووقف ومد يده وصافح خليل رفعت بك القاضي العادل النزيه لا الضابط الذي يمكن أن يؤثر في قضيته.

***

رسالة تطمين من جمال باشا

خليل رفعت: أنا اليوم مشاور عدل جمال باشا الصغير، وعلى رغم قناعته ببراءتك وإخلاصك اللذين أكدهما لدولته كثيرون ، فقد سألني رأيي فشهدت لما أعتقد. وقد أمرني بالأمس أن أدعوك إلي وأكلمك بلسانه لأنه اضطر أن يسافر في هذا الصباح باكرا إلى الجبهة وإلا كان استدعاك وكلمك بنفسه.

ثم قال أن رئيس الديوان العرفي التابع للقول أوردي الذي يقوده دولته جاء بالأمس وأبلغ جنابه حديثك في جلسة الديوان العرفي الأخيرة، وأنك مللت المعاملة التي يعاملونك بها وأنك تطلب إخراجك بالكفالة، وقد أمرني دولته أن أخبرك أنه لا يستطيع ذلك على الرغم من أن الديوان العرفي مربوط به لأنه من جيشه غير أن حقه لا يتعدى النظر في دواعي الجنحة. أما الجنايات فالنظر فيها عائد إلى القائد العام الذي أوغر صدره عليك من كانوا يحيطون به، ولكن بما أن القائد العام سيذهب على الغالب إلى الأستانة وستسند القايادة العامة إلى جمالنا، فقد أوصى رئيس الديوان العرفي ليؤجل البت في دعواك إلى أن يسافر

القائـد العـام وتحـال إليـه القيـادة فيأمـر الديـوان حينئـذ بتبليغـك الـبراءة التـي يعتقـد بهـا هـو والديـوان معـه، فاصـبر ولا تجـزع ولا تمـل.

سر مفلـح بهـذه المعلومـات وشـكر خليـل رفعـت بـك عليهـا وطلـب منـه أن يشـكر الباشـا متـى عـاد مـن الجبهـة.

الفصل الثامن والثلاثون
مفلح والسجين اليهودي

كان إلى جانب غرفة مفلح غرفة فيها سجين يهودي، فهذا وسجين آخر من عدد كبير من اليهود الذين اتهموا بالجاسوسية بقي في أرجلهما سلسلتان حديديتان، ولما رأى جار مفلح في الغرفة أن رفاقه من اليهود الذين حكموا معه فك الحديد الذي كان في أرجل البعض منهم، داخله الخوف والقلق العظيمين من بقاء الحديد في رجله.

***

مفلح وجاره

ولما كان مفلح قد أصبح حرا ورأى أن اليهود رفاق هذا السجين البائس ما كانت تتسنى لهم زيارته لتسليته شعر أن الواجب الإنساني يفرض عليه أن يسلي جاره وأخاه في الإنسانية ويخفف عنه، وخصوصا لأن المسجونين ينسون غالبا الخلافات السياسية والعنصرية التي تكون بينهم خارج السجن ويعتبرون أنفسهم في داخله كأعضاء مشلولة في جسم السياسة وكشركاء سببية واحدة في السجن فيعطفون بعضهم على بعض.

بدأ مفلح يزور هذا السجين البائس أكثر من مرة في اليوم ويجلس معه ساعات يخفف عنه ويحاول طرد فكرة الإعدام من رأسه على رغم أن مفلح كان قانعا بأن الديوان العرفي حكم على المسكين بالإعدام

ولم يبلغه الحكم حتى يصدق عليه القومندان العام فينفذ حالا. ولكن هذا الشاب ما كان ليتعزى على رغم أن مفلح كان يرمله باحتمال مجيء الفرج بين دقية وأخرى.

وفي الليلتين الأخيرتين قبل إعدام هذا الشاب ورفيقه، فقد المسكين لذة النوم وصار يخاف من الظلمة فيشتري بواسطة خادم السجن في كل مساء بضع شمعات صغيرة ينيرها الواحدة بعد الأخرى إلى الصباح. وشعر مفلح أن الواجب يقضي عليه أن يواسي جاره ويسهر معه جانبا من الليل أيضا.

وكتب المسكين كلمة فقال لمفلح: أنا اعترفت أمام الديوان العرفي أن ما فعلته لم يكن من قبيل الجاسوسية أو الخيانة بل من قبيل خدمة المبدأ القومي.

***

خير الوطن القومي

أحس مفلح بقشعريرة تمشت في عروقه وقال في نفسه: أيمكن أن يكون صحيحا ما قالته الجرائد التركية أن الحكومة الإنجليزية وعدت اليهود بأن تعطيهم فلسطن وأن نكون نحن العرب مخطئين في تأويلنا هذه الدعاية، واعتقادنا أن الأتراك يقومون بها ليضعفوا ميول العرب إلى الإنجليز وثقتهم بهم؟

أوغـل مفلـح في الحـدس والتخمـين فقـال: هـل يمكـن أن يكـون الشريـف حسـين وأنجالـه متواطئـين عـلى هـذا مـع الإنجليـز؟ وإن لم يكونـوا عـلى تفاهـم معهـم عـلى إعطـاء فلسـطين لليهـود، فكيـف يحاربـون وإياهـم مـن أجـل اسـتقلال العـرب والإنجليـز وعـدوا اليهـود بفلسـطين؟

أيمكـن أن يكـون الشريـف وأنجالـه جاهلـين هـذا الأمـر؟ وكيـف يجهلونـه هـم ونسـمع بـه نحـن في ظلـمات السـجون المنقطعـة عـن الأخبـار؟ ونعلـم أن اليهـود آلايـا خاصـا يحـارب باسـم الصهيونيـة في صفـوف الإنجليـز؟

***

أمـين لقوميته حتى الموت

وأخـيرا خطـر لمفلـح أن يسـتدرج السـجين فأخـذ يسـأله عـن التهمـة التـي حوكـم بهـا فلـم يشـأ أن يقـول أكـثر مـن أنهـا تهمـة جاسوسـية، ولكنهـا لم تكـن خيانـة البتـة، ثـم صعـد الـدم إلى رأس المسـكين وقـال: لم تخطـر الخيانـة ببـالي قـط.

أشـفق مفلـح عـلى الرجـل ولم يشـأ أن يزيـد في تعذيبـه بكـثرة الأسـئلة فعـاد إلى مواسـاته. وبقـي كذلـك إلى أن جـاؤوا ليلـة وأخـذوه قبـل الفجـر إلى المشـنقة مـع رفيقـه وعلقوهـما.

وبالمناسـبة نقـول إن بعـض المسـجونين مـن اليهـود، عرفـوا مفلحـا وكأنهـم هـم أيضـا نسـوا خلافاتهـم العنصريـة مـع العـرب، فـكان بعضهـم يدعـوه أحيانـا لتنـاول فنجـان شـاي معهـم في السـجن، وكان لفنجـان الشـاي قيمـة

كبرى في ذلك الزمان والمكان، ومن الغريب أن اليهود ومفلح لم يفتحوا حديثا سياسيا البتة.

***

البشارة

كان مشاور عدل الديوان العرفي شابا جميلا وكانت علائم الذكاء بادية على وجهه وفي عينيه البراقتين ولم تخف شهامته على مفلح الذي كان يتبادل وإياه النظرات أثناء جلسات المحاكمة الاثنتي عشرة التي جلسها أمام المحكمة العرفية.

وفي ذات يوم حوالي الغروب بينما كان مفلح يتناول عشاءه الذي كان عبارة عن كسرة خبز، وحبات زبيب. وقف مشاور العدل بباب غرفته ووراءه قانون الديوان العرفي وحيا مفلح بالتركية وابتسم ابتسامة لطيفة أدرك مفلح أن وراءها معنى.

نهض مفلح حالا وصافح المشاور وشد يده فقابله المشاور بالمثل وألقى كلمة إلى القانون فذهب. وأسر المشاور في أذن مفلح بلغة عربية مكسرة أن البيوك قومندان إن شاء الله بعد يومين ثلاثة مسافر وجمال باشا الصغير يصير قائدا عاما وأنت براءة إن شاء الله. وضغط بيديه الاثنتين على يد مفلح والتفت حواليه ليتأكد من عدم وجود من يسمعه وقال: الله اسمر لدق مفلح بيه.

الفصل التاسع والثلاثون

البراءة

انقضى أكثر من أسبوع ومفلح ينتظر خبر براءته بفارغ الصبر، وأخيراص جاء مشاور عدل الديوان العرفي ومعه قائمة كبرى بأسماء نحو مئة سجين وفي رأسها اسم مفلح ووقف في ساحجة السجن وأخذ يقرأ الأسماء واحدا واحدا والقانون ينادي لأأصحابها بأعلى صوته فينحدرون من غرفهم إلى ساحة الحبس. ولما انحدر مفلح صافحه المشاور وقال إني أهنئك بالبراءة. أنت بريء بحق وقد أسيئت معاملتك ولكن لا بأس فالمخلصون يجب عليهم أن يتحملوا كثيرا.

***

«هيدي»

وبعد أن تمت قراءة الأسماء أخذ بعض الجنود من حراسة الديوان يطوفون على المسجونين الذين أعلنت براءتهم ويهنئونهم لينالوا منهم شيئا من البخشيش، وكان بينهم الجندي الذي دفع مفلح بكعب البندقية في طريقه إلى الديوان العرفي، فجاء هذا إلى مفلح ومد يده ليصافحه فقال له مفلح: هيدي، فسر الجندي بالنكتة وابتسم لها وتجاوز مفلح إلى غيره.

أعطى هؤلاء المسجونين فرصة نصف ساعة ليعدوا أنفسهم لمغادرة السجن ويودعوا رفاقهم ومن ثم صفوا اثنين اثنين ومشوا والجنود معهم إلى الديوان العرفي فدائرة نظارة البوليس.

جمع مفلح ثيابه في خرجه وكان معه رغيفا خبز فوضعهما في الخرج أيضا وسلمه للجندي فسلمه الجندي في باب النظارة بعد أن زاروا الديوان العرفي وتبلغوا فيها البراءة ولم يكن ناقصا من الخرج سوى الخبز مما دل على أن الجندي العثماني إذا كان جائعا لا يمد يده لغير الخبز.

***

«هيدي سكتر»

حشر هؤلاء وكانوا أكثر من مئة، سلمهم الجنود بالعدد للبوليس - حشروا في دار نظارة البوليس وكانت عبارة عن غرفتين أرضيتين رطبتين جدا وإيوان وفسحة دار وغرفتين علويتين، وكان الوقت في أواسط تشرين الثاني والطقس باردا جدا، وبعد أن وقف مفلح نحو نصف ساعة في الإيوان شعر بالرطوبة الشديدة وتخدرت رجلاه إلاى ما فوق الركبة فقال في نفسه: إذ بقينا على هذه الحال إلى الصباح نموت من الرطوبة والبرد فياليتهم أبقونا في حبس الديوان العرفي إلى الصباح وصرفونا. وخطر له أن يطلب من البوليس أن يصعد وبعض رفاقه الضعاف إلى الغرف العلوية فتقدم منه وشكا إلى البوليس الرطوبة

ورجاه بلطف أن ينظر في حاله وحال بعض الضعفاء من المسجونين وقال له أنه مستعد أن يقابل الحسنة بمثلها فما كان من البوليس إلا أنه انتهر مفلح قائلاص «هيدي سكتر» قال مفلح في نفسه: سكتر يا رجل ولا تعمل لك حكاية جديدة بعد أن أوشكت أن تخلص. «سكتر» مفلح وجلس إلى جانب رفيق له على فراشه ورفه رجليه عن الأرض ليتقي الرطوبة.

***

الرئيس يرسل عشاء لمفلح

وما كاد يستقر المكان حتى قرع باب النظارة ففتح البوليس الخوخة فمد منها طبق عليه بعض ألوان الأطعمة فقال الرجل الذي بباب الخوخة للبوليس: أنا خادم قائمقام بك رئيس الديوان العرفي أرسلني سيدي بهذا عشاء لمفلح بك الغساني الذي لا ريب في أنه غادر السجن قبل أن يتعشى.

صاح البوليس: مفلح بك الغساني!

مفلح: أفندم.

البوليس: تفضل خذ عشاءك المرسل إليك من جناب رئيس الديوان العرفي.

مفلح: دع خادم الرئيس يحضره فأنا متألم من شدة البرد.

أتى الخادم بالعشاء فتعشى مفلح مع رفيق له، وطلب من الخادم أن يشكر رئيس الديوان العرفي على لطفه وحسن معاملته وقال:

قل له أن هذه المعاملات الطيبة تنسيني كل ما لاقيت.

ذهب الخادم يحمل شكر مفلح لرئيسه وبقي مفلح يتأمل في مكارم أخلاق كبار الأتراك الذين يقدرون الإخلاص ويتحينون الفرص لإظهار شعورهم نحو المخلطين والسلطة لا تنسيهم واجبات الإنسانية.

***

البوليس يعتذر

ما أحس مفلح إلا والبوليس الذي قفل الباب وراء خادم الرئيس مقبلا نحوه وهو يبكل أزرار صاكته، وما دنا منه حتى وقف وسلم وقال: بيه أفندي أرجو عفوك، أنا أسأت الأدب معك ولكني معذور لنك ترى هذا العدد الكبير من السجناء وكل واحد منهم يراجعني في شيء وأنا ليس باستطاعتي أن أفعل شيئا كثيرا.

مفلح: أليس باستطاعتك أن تطلعنا من هذه الرطوبة؟

البوليس: أمرك أفندم.

مفلح: إذا لا بأس بما كان فعجل بإنقاذنا.

تـرك البوليـس رفيقيـه عـلى البـاب وصعـد حـالا وجميـع الموقوفـين في الغرفتـين العلويتـين في واحـدة منهـا وأفـرغ الثانيـة وأذن لمفلـح أن يصعـد إيلهـا مـع ثمانيـة مـن رفاقـه فصعـدوا ونامـوا تلـك الليلـة وهـم لا يعلمـون مـاذا ينتظرهـم في الغـد.

الفصل الأربعون

اهتـمام رئيس العرفي بمفلح

وثـاني يـوم صباحـا جـاء بوليـس ونـادى مفلحـا وسـار وإيـاه إلى دائـرة البوليـس في الشـام وحالمـا خرجـا مـن دائـرة النظـارة لقيـا المرحـوم أحمـد كـرد عـلى أحـد صاحبـي المقتبـس واقفـا بالبـاب فمـشى إلى جانـب مفلـح وقـال لـه: أنـت تعلـم أن إدارتنـا مقابلـة للديـوان العـرفي فقبـل نحـو نصـف سـاعة لمـا جـاء رئيـس الديـوان العـرفي إلى المحكمـة نقـر لي عـلى قـزاز غرفتـه فتقدمـت مـن شـباك غرفتـي فقـال لي بالتركيـة أن مفلحـا تـبرأ وبـات في الأمـس في نظـارة البوليـس، وبمـا أنهـا رطبـة وغـير نظيفـة، وبمـا أن الذيـن يتـبرأون يبقـون في دائـرة النظـارة إلى أن ينظـر الـوالي مـع القومنـدان العـام في أمرهـم ويقـرر نفـي مـن يقتـضي نفيـه وسـوق مـن كان تحـت الأسـنان العسـكرية إلى الجيـش وإبقـاء مـن يلـزم بقـاؤه تحـت النظـارة هنـا. والسـماح للنفـي الصفحـة بالرجـوع إلى بلـده.. وبمـا أن القومنـدان العـام مشـغول جـدا بتفقـد حـالات الجيـش، فمـن الـضروري أن يذهـب أخـوك الأسـتاذ ويكفـل مفلحـا ليخرجـه مـن النظـارة ويقدمـه للـوالي ويريحـه مـن إثبـات الوجـود لئـلا يبقـى طويـلا في النظـارة فيتـضرر مـن الرطوبـة.

وبنـاء عليـه ذهـب أخـي محمـد إلى دائـرة البوليـس وطلـب إخراجـك مـن النظـارة.

عند الوالي تحسين بك

مشى مفلح إلى دائرة البوليس فوقف قليلا وإذا بالأستاذ محمد أفندي كرد علي نازلا من عند قومندان البوليس فصافح مفلح وهنأه وأخذ بيده إلى خارج الدائرة وركب وإياه عربة وسارا.

فقال مفلح: إلى أين؟

كرد علي: إلى الوالي.

مفلح: بهذه القيافة؟!

كرد علي: وهل عندك أفضل من هذه الثياب؟ هلم نذهب لنخلص الآن من إثبات الوجود.

سارت العربة إلى أمام بيت الوالي فترجل الأستاذ كرد علي ومفلح وصعدا إلى بيت الوالي، وكان تحسين بك يومئذ واليا على دمشق وهو رجل طيب القلب كريم الخلق حسن التدبير.

قدم كرد علي مفلحا للوالي فأجلسه إلى يمينه وقص كرد علي بأسلوب حسن وبإيجاز حكاية مفلح للوالي فأعرب جنابه عن أسفه الشديد لما أصاب مفلح وهنأه بالسلامة.

حديث الوالي

وقال أن هذه المحن هي للمخلصين كالنار التي تمحص الذهب، فقد تسنى لك أن تختبر عدل الحكومة العثمانية وحسن ثبات رجالها الكبار الذين وإن خدعهم الوشاة يتحرون الحقائق ليجروا العدل.

***

حكاية قديمة

وتسنى لنا أن نعرف مقدار إخلاصك، فقد اتصل بي أنه كان بوسعك أن تهرب وتغادر البلاد فأبيت وخاطرت بنفسك واستسلمت في هذه الظروف العصيبة لئلا تلتصق بك تهمة الخيانة.

وروى لي رئيس الديوان العرفي حكاية قديمة جدا سمعها عند مؤادها أنك مررت قديما مع أحد رجالات الإنجليز بمرج ابن عامر فلما أبصره قال لك أن هذا الوادي القفر اليوم يمكن تحويله تحت حكومة أوروبية إلى جنة فأجبت ؟أنت : قد يكون ذلك ولكن هذا التحويل ممكن أن يحصل في عهد حكومة أوروربية بعد خروج الوادي من أيدينا لن الإفرنج يستفيدون من جهلنا وهم يعرفون قيمة الأراضي فيشترونها ويستخدموننا فيها فعلة وعبيدا ولكن بقاء حكومتنا يبقينا أسيادا في بلادنا وإذا لم تتحول هذه الأراضي إلى حدائق في عهدنا فقد يتسنى لأولادنا أن يحولوها.

مفلح بخجل: نعم.

الـوالي: إني مسرور جـدا بلقياك وأرجو أن أراك وأحدثك أكثر من مرة.

كـرد عـلي: أرجـو مـن أفندينـا أن يأمـر البوليـس بإعفـاء مفلـح مـن إثبـات الوجـود كل صبـاح ومسـاء.

الـوالي: طبيعـي، أبعد كل ما جـرى نحتاج إلى تأميناتع من مفلح؟!

ولمـا وصلـوا إلى هـذا الحـد مـن الحديـث دخـل اثنـان مـن البطاركـة عـلى الـوالي فانتهـز الأسـتاذ كـرد عـلي فرصـة دخولهـما وطلـب إذنـا مـن جنـاب الـوالي بالانـصراف وقـال أنـا سـأعلمك بـأول فرصـة في أي وقـت يمكننـي مقابلـة مفلـح للمـرة الثانيـة، وسـأعطي تعليـمات للبوليـس أن لا يكلـف مفلحـا لإثبـات الوجـود مـن بعـد الآن.

خـرج مفلـح مـن عنـد الـوالي وهـو مـسرور جـدا بتبـدل الحالـة وقـد قابـل بـين معاملـة الـوالي ورئيـس الديـوان العـرفي الحسـنة لـه ومعامـلات محمـد عـلي فيـضي باشـا حفيـدي وفحـص عـن أصـل محمـد عـلي فوجـده أرناؤطيـا لا تركيـا فقـال في نفسـه أن هـؤلاء الدخـلاء يريـدون غالبـا بالتشـديد والتضييـق عـلى النـاس أن يبرهنـوا عـلى شـدة إخلاصهـم للحكومـة.

الفصل الحادي والأربعون
مفلح عند الوالي

بعد يومين ثلاثة وردت على الأستاذ الكبير كرد علي من الوالي تحسين بك تذكرة يطلب منه فيها أن يعلم مفلح بأن يذهب لمقابلة الوالي في دار الحكومة في ساعة معينة.

ذهب مفلح في الوقت المعين ودخل على الوالي فوجد عنده شابا تركيا عرفه عليه كمدير جريدة الشرق المسئول أو مدير شئونها. وقال: لقد فكرت في ضمك إلى أسرة جريدة «الشرق» وهي كما تعلم جريدة الجيش ويحرر فيها من الكتبة الأعلام الأمير شكيب والأستاذ كرد علي والنعساني والمغربي، وهذا مديرها لمسئول أو مدير شؤونها دعوته لأعرفك عليه.

***

مفلح تحت المحك

خطر لمفلح أن جريدة حجمها أربع صفحات وفيها مثل هؤلاء الكتبة الأعلام لا يمكن أن تكون لحاجة إلى قلمه. وأن الغرض من هذا التكليف وضعه على المحك لمعرفة حقيقة سياسته فاجتهد في أن يتنصل وقال للوالي: مضى عيل ثلاث سنين وأنا بعيد عن بيتي وأولادي فأرجو أن يسمح لي أفندينا بتفقد أحوالهم وتدبيرهم.

إصرار الوالي

الـوالي: نحـن في حالـة حـرب وأول مـا يجـب أن نفكـر بـه سـلامة الوطـن ومـع ذلـك فـأولادك أولادي وبيتـك بيتـي. أنـا مسـتعد لأن أعطيـك مـالا لتسـتأجر بيتـا وتؤثثـه أحسـن مـن بيتـك القديـم ونعطيـك راتبـا تعيـش فيـه مرتاحـا أنـت وأولادك.

اذهـب وفتـش لـك عـلى بيـت مناسـب وقـاول عـلى أجرتـه وعـدل قيمـة أثاثـه وتعـال لأحولـك عـلى المـصرف الزراعـي.

مفلـح: ولكـن رأسي تعب جدا وأنا محتاج إلى الراحة.

الـوالي: كل رؤوسـنا تعبانـة ومـع ذلـك فـلا نطالبـك بأكـثر مـن مقـال واحـد في الأسـبوع وهـذا المديـر يسـمع.

علـم مفلـح أن لا شيء يحـول الـوالي عـن فكرتـه فقـال في نفسـه بقـي لي أمـل واحـد هـو جـمال باشـا الصغـير فيجـب عـلي أن أطـاول وأنتظـر عودتـه مـن الجبهـة.

ودع مفلـح الـوالي وشـكره عـلى عنايتـه وودع مديـر الجريـدة، فقـال الـوالي: إن شـاء اللـه تبـدأ عملـك بعـد يومـين ثلاثـة تصرفهـا في إيجـار بيـت.

موقف الغساني

ثـاني يـوم ذهـب مفلـح إلى إدارة جريـدة الـشرق فقدمـه المديـر إلى الشـيخ تـاج الديـن الحسـيني فرحـب بـه أجمـل ترحيـب ثـم قدمـه إلى الأسـتاذ المغـربي فلقـي منـه كل رعايـة وإكـرام.

ثـم قدمـه إلى الأسـتاذ النعسـاني وكان هـذا أكـثر اهتمامـا مـن غـيره بشـؤون الجريـدة فلـم يظهـر ارتياحـا للتعـرف عـلى هـذا العضـو الجديـد الـذي انضـم لأسرة التحريـر وكأن لسـان حـال النعسـاني قـال: مـن أيـن أتانـا هـذا؟ نحـن مـا صدقنـا أن غـادر الأمـير شـكيب البـلاد والتهـى عنـلا كـرد عـلي بشـؤون أخـرى وخـص الأسـتاذ المغـربي نفسـه بالمسـائل الدينيـة والأخلاقيـة حتـى انفردنـا نحـن بتحريـر الجريـدة وصرنـا نتوقـع التقديـر والمكافـأة فمـن أيـن أتانـا هـذا؟

لاحـظ مفلـح في وجـه النعسـاني علائـم الامتعـاض وفي حديثـه شـيئا مـن عـدم الارتيـاح فسره الموقـف وقـال في نفسـه سـوف يبـذل النعسـاني جهـده لإقصـائي عـن هـذه الخدمـة ويسـاعدني مـن حيـث لا يريـد، وعـلى كل فـإني أشـكره وأردو لـه بالتوفيـق. وقابـل مفلـح اسـتياء النعسـاني بـكل رقـة وضغـط عـلى يـده لمـا وعـده.

موقف مفلح حيال التحرير

أما اهتمام مفلح بالتخلّص من التحرير في جريدة الشرق فلم يكن سببه عدم الرغبة في خدمة الدولة العثمانية، بل كان اعتقاده الحسن بالإنجليز وقد كان يظن أنهم لا يقدمون على عمل إلا وفيه كل الخير للإنسانية وأبنائها، كيف لا وقد عاشر منهم الدكتور وليم يونغ والدكتور داود طرنس في طبريا بضعة سنين وخبر أخلاقهم ومبادئهم الطيبة وقرأ عدة كتب أدبية لأعلام كتبتهم وروائييهم، ولأنه كان يعتقد أن الحكومة العثمانية ارتكبت خطأ عظيما في اشتراكها في الحرب ضدهم ولم يكن يعلم شيئا كثيرا عن حقيقة سياستهم الاستعمارية وفوق ذلك لم ير مناسبا أن يعود في آخر الزمن للخدمة التي رفضها وضحى بمستقبل أولاده وبحياته العائلية وبفوائد مادية كثيرة وخاطر بحياته لأنه رأى فيا خدمة للسياسة الألمانية أكثر من خدمة للعثمانية.

***

إنذار بواسطة كرد علي

والظاهر أن الوالي لاحظ هذا فأرسل يطلب الأستاذ كرد علي وقال له: أخبر مفلحا إن لم يحرر في جريدة الشرق فإني أنفيه إلى الأناضول.

جاء الأستاذ كرد علي وقال لمفلح هكذا قال الوالي لي ومن رأيي أن تحرر لئلا يبعدك.

فقال مفلح: سوف لا أحرر.

كـرد عـلي: إن لم تحـرر فالـوالي سـوف يبعـدك وكيـف تعـول أولادك الصغـار وأنـت في المنفـى؟

إن الـذي دبـرني إلى اليـوم يدبـرني في المسـتقبل . إني أفضـل النفـي عـلى الكتابـة ضـد اعتقـادي وأنـت تعلـم حسـن ظنـي بالإنجليـز ولا أريـد أن أكتـب ضدهـم لأخـدم السياسـة الألمانيـة.

كـرد عـلي: إنـك مخطـئ جـدا، الـوالي يظهـر عطفـا عليـك واهتمامـا بـك وبـأولادك وأنـت لا تجيبـه إلى طلبـه ونحـن في حالـة حـرب فهـو يسـتطيع بكلمـة أن ينفيـك.

مفلح: سـأحاول إلى أن يعود جمال باشـا الصغير.

كـرد عـلي: لك الخيـار.. أما أنا فمن رأيي أن تعمل بإرادة الوالي.

الفصل الثاني والأربعون
مفلـح وقنصل ألمانيا الجديد

صـار مفلـح كل يـوم يـزور الإدارة صباحـا ويـترك للمديـر الـتركي الـذي كان يتأخـر عـن الحضـور بطاقـة وبقـي عـلى هـذه الحـال بضعـة أيـام اسـتدعاه في غضونهـا بواسـطة ترجمانـه قنصـل جـنرال ألمانيـا الـذي خلـف الدكتـور لويتفـت، وكان القنصـل الجديـد شريفـا رفيـع المبـادئ، فسـأله عـن الخـلاف الـذي نشـب بينـه وبـين سـلفه فقـص عليـه مفلـح الحكايـة بالتفصيـل.

ثـم حـدث القنصـل مفلحـا عـن مـشروع إنشـاء جريـدة باللغـات التركيـة والعربيـة والألمانيـة وأنـه تحـت الـدرس، وسـأل ممفلـح هـل إذا صحـت العزيمـة عـلى إخـراج المـشروع إلى حيـز الوجـود يـرضى أن يحـرر القسـم العـربي منـه.

فقـال مفلـح: متـى تقـرر المـشروع ووقعـت عـلى سياسـة الجريـدة حينئـذ يمكـن أن يكـون في وسـعي الاضطـلاع بالمهمـة إن كنـت أقـوى عـلى القيـام بهـا.

***

ترجمة البرقيات

سر القنصل بهذا الجواب وقال لمفلح أن الذي يترجم البرقيات الألمانية إلى العربية سافر بالإجازة فهل لك أن تنوب عنه بالوكالة مدة؟

خطر لمفلح أن العمل في هذا قد يطمئن نفس الوالي، فقبل مبدئيا ولكنه قال أنه مقيد بأوامر الوالي.

القنصل: ولكن هذا العمل لا يستغرق أكثر من ساعة في اليوم.

مفلح: حسن ولكنني لا أتقيد لمدة معينة لأنَّه متى عاد القائد العام سأسافر أنا إذا أذن لي بالسفر.

القنصل: اتفقنا..

وودع مفلح القنصل وهو مسرور من الملاطفة.

بقي مفلح بضعة أيام في دمشق يترجم البرقيات الألمانية العربية.

الفصل الثالث والأربعون
جمال الصغير ومفلح

بلغ مفلح أن القائد العام جمال باشا الصغير عاد من الجبهة فذهب فورا إلى مقره وطلب من باوره أن يستأذن له بمقابلته فاقل الياور: إن الباشا لا يستطيع أن يقابل أحدا وقد أمني أن لا أزعجه بطلبات المقابلة.

واتفق مرور المرحوم الدكتور كنعان من نابلس وكان معاونا للسر طبيب وكان رحمه الله وطنيا متحمسا، فلما رأى مفلحا سأله عن حاجته فقال: أريد مقابلة القومندان. فألح الدكتور حمدان على الياور أن يستأذن لمفلح فلم يسع الياور أن يخالف الدكتور كنعان غير أنه لما ذهب الدكتولار قال الياور لمفلح: أنظر يا صاحبي كل هؤلاء الشيوخ يريدون مقابلة الباشا وليس له متسع من الوقت لمقابلة أحد ولذلك ترك غرفته وذهب إلى غرفة أحد كبار الضباط وهو ينتظر قدوم رئيس أركان الحرب الألماني قريبا.

***

التجاء مفلح إلى خليل رفعت

فلم ير مفلح فائدة من معالجة الياور ففطن لخليل رفعت بك مشاور العدل، فذهب إلى غرفته ورجا منه أن يطلب له مقابلة مع الباشا.

خليـل رفعـت: ولكـن الباشـا مشـغول جـدا ولا يسـعه مقابلـة أحـد لأنـه ينتظـر قـدوم أركان الحـرب الألمـاني ليقابلـه ويسـافر إلى الجبهـة صبـاح الغـد.

مفلح: ومتى يعود؟

- الله اعلم.

- اسـمع يـا سـيدي، لقـد أحسـنت إلي في البدايـة فأحسـن في النهايـة. أنـا مضطـر لمقابلـة الباشـا لأشـكره وثانيـا لأسـتأذنه فأرجـوك أخـبره أني حالمـا سـمعت بقدومـه أسرعـت لأقابلـه وأشـكره. ودعـه يرفـض مقابلتـي ألـف مـرة فذلـك خـير مـن أن يظـن بي سـوءا ويعتقـد أني عديـم الوفـاء ولم أعـد أفكـر بزيارتـه وشـكره بعـد نجـاتي مـن الديـوان العـرفي. فاعمـل معـي هـذا المعـروف وأخـبره أني ألـح بطلـب مقابلتـه لشـكره وتوديعـه إذا أذن لي بالسـفر.

لم يظهـر خليـل بـك أقـل تـردد بعـد سـماعه هـذا بـل قـام وألقـى نظـرة وهـب تـوا إلى الغرفـة التـي كان الباشـا فيهـا وقـال لـه مفلـح في البـاب وهـو يلـح بطلـب مقابلـة دولتـك ولما قلنـا لـه أنـك مشـغول أجـاب دعـوه يرفـض مقابلتـي ولا تمنعـون يأنتـم مـن غهـداء واجـب الشـكر والوفـاء.

الباشا: مفلح الغساني؟

- نعم.

- دعه يدخل.

خـرج خليـل بـك فوجـد مفلحـا وراءه فقـال لـه: يـا سـيدي هـا هـو قـد أذن لـك مـن دون سـائر النـاس.

***

في حضرة القومندان

مفلـح دخـل مـن البـاب إلى صالـون واسـع كبـير وكان جـمال باشـا الصغـير جالسـا في صـدره إلى يسـاره ضابطـان، فلـما أبـصر مفلحـا بـش لـه ووقـف وقـال أهـلا وسـهلا خلصـت مـن الديـوان العـرفي؟

- بفضل رعايتك.

- أنـا قلت لك لا تخف.

- علمـت أن عينيك كانتا ترعياني.

- تفضل.

وأومأ إلى مفلح فجاء وجلس إلى يمين الباشـا.

***

الشكر

وبعدما سـأله الباشـا عن صحته قال: علام عولت؟

- أتيت يا مولاي لأشـكرك.

- لا تشـكر فأنـا تأكـدت مـن براءتـك وإخلاصـك ولذلـك أردت أن أخـدم العدالـة والسـمعة العثمانيـة.

- ثـم لأسـتئذنك بالانـصراف لـولا أن أفندينـا الـوالي أمـر أن أحـرر في جريـدة الشرق.

- رأي الوالي حسن.

***

رقة شعور الباشا

- ولكن بيتي وأولادي.

- أنـا والوالي نعاونك عـلى إعادة تنظيم بيتك وإعالة أولادك.

- ولكـن دماغي متحجر.

- لا شـك أنـك بحاجـة إلى الراحـة. اذهـب وروح عـن نفسـك شـهرين ثلاثـة ومـن ثـم خابـرني.

- أخـشى أن يغضب ذهابي أفندينا الوالي.

الباشـا: لا تودعـه الليلـة بـل أبـق وداعـه إلى الغـد. أبحاجـة أنـت إلى دراهـم بعـد أن عانيـت مـا عانيتـه.

قـال مفلح بخجل وامتنان زائدين:

نشـعر يـا سـيدي أنـه يجـب علينـا أن نقـدم للجيـش لا أن نأخـذ منـه في هـذه الظـروف العصيبـة.

ثـم قـرع الجـرس فطلـب الباشـا خليـل رفعـت بـك وحدثـه بالتركيـة ليكتـب لمفلـح شـهادة بـراءة وعـدم معارضـة، ففعـل ووقـع الباشـا هـذه الشـهادة وقـال لمفلـح: إن ميعـاد قـدوم رئيـس أركان الحـرب الألمـاني دنـا ولـولا هـذا لكنـت أرغـب في أن أحدثـك طويـلا.

هل من مسـاعدة أخرى أسـتطيع أن أقدمها لك؟

مفلـح: توصيـة خاصـة لمديـر البوليـس ليعطينـي وثيقـة بالسـفر إلى النـاصرة بـدون تأخـير.

طلـب الباشـا خليـل رفعـت بـك وأوعـز إليـه أن يكتـب هـذه التوصيـة فوقعهـا الباشـا ودفعهـا إلى مفلـح فتناولهـا، ومـد الباشـا يـده وصافـح مفلـح وضغـط عـلى يـده وقـال: واصلنـي بأخبـارك. فتأثـر مفلـح مـن هـذه المعاملـة واختنـق صوتـه ولم يعـد يسـتطيع الـكلام.

الفصل الرابع والأربعون
إلى دائرة البوليس

خـرج مفلـح مـن عنـد جـمال باشـا ممتنـا شـاكرا جـدا وذهـب تـوا إلى إدارة المقتبـس فوجـد الأسـتاذ كـرد عـلي فيهـا فحدثـه فحدثـه عـن مقابلتـه لجـمال باشـا ولكنـه لم يذكـر لـه خـبر التوصيـة لمديـر البوليـس.

مفلح للأسـتاذ: أرجو منك واحدة يا سيدي.

كرد علي: ما هي؟

مفلـح: أن ترافقنـي إلى دائـرة البوليـس لنحصـل عـلى إذن بالسـفر «وقـد كان السـفر بالقطـار في مـدة الحـرب ممنوعـا بـدون وثيقـة».

كـرد عـلي: أنـا عـلى اسـتعداد لخدمتـك في كل مـا تريـد إلا أني لا أود مقابلـة رجـال البوليـس وخصوصـا في هـذه الظـروف لأن طبائـع كثيريـن منهـم عصبيـة وخشـنة.

مفلـح: وصلنا إلى الآخر وسـوف بعـد هذه المرة نريحك من كل ثقلة.

كـرد علي: أرجوك كلـف غيري من معارفك بهذه المهمة.

مفلـح أخـرج كتـاب التوصيـة مـن جيبـه وقـال للأسـتاذ: خـذ اقـرأ هـذه الورقـة.

قرأ كرد علي وضحك حتى اسـتلقى وقال: الآن أذهب معك بكل سرور.

مفلح: هيا بنا.

ثم قال لكرد علي أرجو أن تحدث البوليس بصورة التماس بادئ بدء لنرى كيف يكون موقفه معنا ثم نطلعه على التوصية إذا اقتضى الأمر.

كرد علي: حسن.. يظهر أن السجن عليمك التمثيل!

***

في حضرة المدير

ومشى الاثنان حتى وصلا إلى دار الحكومة فدخلاها وتعديا دوائر البوليس الفرعية حتى بلغا غرفة مدير البوليس في طابق علوي وقد بكل مفلح أزرار صاكته ووقف متأدبا وراء الأستاذ الكبير كرد علي ليرى موقفه أمام مدير البوليس. فقال الأستاذ مخاطبا المدير: لا بد بلغك شيء عن حكاية مفلح الغساني.

مدير البوليس: نعم نعم، وأنت أخذته من النظارة إلى عند الوالي وكفلته وأبلغنا دولفته أن لا نكلفه إلى إثبات الوجود.

كرد علي: نعم، وبما أنه أذن له بالرجوع إلى الناصرة فقد جئت أرجوك أن تزوده بوثيقه له ولولاده.

مدير البوليس: ألقى نظرة على مفلح فوجده بثياب رثة أو كما يقولون الأتراك «هركلة» والتفت إلى كرد علي وقال: هل تصور هذا وأولاده وأتيتم بالصورة؟

كرد علي: خير أفندم.

مديـر البوليـس: سـبحان اللـه أنتـم تعجزوننـا دائمـا دون موجـب. مـن هـو هـذا وأشـار إلى مفلـح- حتـى نعاملـه معاملـة اسـتثنائية. خـذه ودعـه يتصـور مـع أولاده ويقـدم طلبـا حسـب الأصـول فتسـير معاملتـه في سـيرها القانـوني.

كـرد علي: ولكن الرجل معـدم ورب عائلة ومفقتر إلى عطفكم.

مديـر البوليـس: هنـا معامـلات قانونيـة فأرجـوك يـا أسـتاذ ألا تضيـع وقتـك ووقتـا.

***

التوصية وتأثيرها

رأى مفلـح أن الوقـت قـد حـان ففـك أزرار صاكتـه ومـد يـده إلى جيـب داخـلي وأخـرج منهـا أوراقـا وأفـرز ورقـة ورد الأوراق الأخـرى ودنـا مـن مديـر البوليـس بقـدم ثابتـة وقـد لـه الورقـة باحـترام.

وكأن مديـر البوليـس عندمـا وقـع نظـره عـلى العنـوان اشـتبه بالخـط فوقـف وفـض الغـلاف بيـد مسـتعجلة وألقـى نظـرة عـلى التوقيـع فبهـت وقـال للأسـتاذ كـرد عـلي: أمـان أفنـدم. لمـاذا لم تقـل لي أنكـم تحملـون توصيـة مـن صاحـب الدولـة القائـد العـام؟

مفلـح: أردنـا يـا سـيدي أن يكـون الإحسـان منـك إلينـا رأسـا ولم نشـأ أن نوقعـك موقـف المأمـور بإجرائـه.

«بلعها» مدير البوليس.

وأخـرج كرسـيه مـن وراء طاولتـه إلى يمينـه وجـذب كرسـيا كان أمـام الطاولـة إلى جانـب كرسـيه والتفـت إلى كـرد عـلي ومفلـح وقـال بتـأدب:

بيرون أفندم.

كـرد عـلي: العفـو أفنـدم تفضـل خـذ كرسـيك ونحـن نقـف إلى أن تتـم المعاملــة.

قـرع مديـر البوليـس الجـرس وطلـب كرسـيا بالعجـل ثـم أمـر أحـد معاونيـه مـن الـسر كوميسـيرية أن يجـري معاملـة الوثيقـة فـورا.

أراد مفلـح وكـرد عـلي أن يخرجـا وراء الـسر كومسـير لتعقيـب المعاملـة في الدوائـر فقـال المديـر: أرجوكـما أن تجلسـا وتشربـا فنجـان قهـوة وتدخنـا سـيجارة إلى أن تتـم المعاملـة وتعـود لنـي أخـشى إذا طفتـما بهـا عـلى الدوائـر أن يعوقكـما أحـد.

شـكر مفلـح وكـرد عـلي للمديـر حسـن معاملتـه، وبعـد برهـة عـاد الـسر كومسـير بالوثيقـة دفعهـا للغسـاني فشـكره الأسـتاذ كـرد عـلي والغسـاني وودعـاه وانصرفـا.

وداع الوالي

بعد أن أخذ مفلح وثيقة سفره ذهب ثاني يوم لوداع الوالي فلما قابله سأله الوالي: ألم تزل هنا؟

مفلح: وهل أسافر قبل أن أستأذن أفندينا الوالي؟

الوالي: أخبرني القومندان جمال باشا أنك بحاجة شديدة إلى الراحة وأنه أذن لك بالسفر لتغيير الهواء مدة ثلاثة أشهر وأنا أدعو لك بالتوفيق والعافية.

شكر مفلح الوالي وصافحه وانصرف توا إلى مديرية سكة الحديد فلقي فيها نسيم بك عدس الذي كان مديرا ثانيا فتلطف هذا وحجز لمفلح وأولاده مكانا في القطار المسافر مساء ذلك اليوم.

ركب مفلح وأولاده القطار كل الليل، وفي الصباح وقف القطار في محطة بيسان فأطل مفلح من النافذة وتأمل في ذلى الوادي الخصيب وتذكر مروره فيه محفوظا إلى دمشق يوم لم يكن يأمل أن يعود ويراه.

ثم سار القطار الهوينا فاجتاز شطة وتوسط السهل بينها وبين العفولة حتى سمع أزيز طيارة فوقف القطار وخرج الركاب منه وتفرقوا في السهل وناموا كلهم على الأرض. أما مفلح فجعل كل واحد من أولاده أن يستلقي بعيدا عن الآخر حتى إذا ألقيت قنابل وأصيب البعض سلم الآخرون منهم.

جاءت الطيارة وحلقت فوق القطار والظاهر أنها شاهدت أن الركاب ليسو جنودا فسارت في سبيلها دون أن تفعل شيئا.

***

في الناصرة

نزل مفلح في العفولة واستقبل عربة إلى الناصرة فاستقبله أصدقاؤه بكل ترحيب وهنأوه بالسلامة.

وسأل أخاه عن الروايتين العربيتين اللتين ألفهما وأودعهما عنده فقال: خفت من التفتيش وأحرقتهما.

***

الدسيسة الأخيرة

وبعد أيام أخذ مفلح يسعى لإيجاد عمل يعيش منه ويخفف عن أخيه الذي حمله ثقلته وثقلة أولاده.

وإذا بثقة يخبره أن أحد الذين يدعون الغيرة على الدولة أبرق إلى نظارة الداخلية يقول إن وجود مفلح إلى جانب الفرقة وهو جاسوس إنجليزي خطر على على أسرار الجيش وحركاته وإن جواب الداخلية الذي وصل بالتسلسل إلى قائمقامية الناصرة التي كان يديرها بالوكالة

يومئـذ حسـني بـك مديـر شـفا عمـرو وكان مـؤداه (خـذو الكوبيـا وعرفونـا مطالعاتكـم) فأجـاب المديـر أن مفلحـا مخلـص للدولـة ومـع ذلـك فهـو منهمـك بتحصيـل خبـز أولاده عـن طريـق التجـارة وكانـت هـذه البرقيـة آخـر المكائـد التـي كيـدت لمفلـح فـراح يعمـل لإعالـة أولاده.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

مشروع النشر الرقمي